إبراهيم النعمة



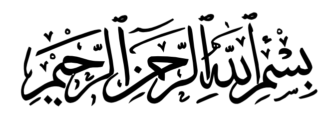
في تزكية النفس وتقويم السلوك

الطبعة الأولى
١٤٣٢ـ ٢٠١١

الطبعة الأولى
١٤٣٢ـ ٢٠١١

رقائق إيمانية

في تزكية النفس وتقويم السلوك


بسم الله الرحمن الرحيم

الأهداء

إلى شباب الصحوة الإسلامية الذين كثرت عليهم المؤامرات من أجل أن ينحرفوا بصحوتهم عن المنهج الأصيل المتمثل بروح العبادة التي دعا إليها القرآن الكريم، ودعا إليها النبيﷺ، وطبقها الصحابة والسلف الصالح ومَنْ جاء بعدهم خير تطبيق...

وإلى كل مسلم يبغي السعادة في الدنيا، والفوز بالجنة في دار الخلود...

اهدي هذا الكتاب ليكون عظة وذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين..

□

كلمات مضيئة

قال الله تعالى:

- ﴿ ...قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ سورة النساء.
- ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ سورة القصص.

وقال النبي ﷺ:

- «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رواه مسلم.
- «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنّهنّ يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» رواه الإمام أحمد.
- «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه هذه – وأشار بالسبابة– في اليم فلينظر بم يرجع» رواه مسلم.

وقال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

- (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك) رواه البخاري.

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه:

- (يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق: صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا الدنيا لحرّ يوم النشور، وتصدقوا مخافة يوم عسير، يا أيها الناس، إنّي لكم ناصح، إنّي عليكم شفيق) كتاب الزهد للإمام

أحمد بن حنبل.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إنّي لا أقدر على قيام الليل، فصف لي دواءاً فقال: (لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل، فإنّ وقوفك بين يديه في الليل من اعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف) تنبيه المغترين للشعراني.

طلب هرم بن حيان من أويس القرنيﷺ أن يوصيه فقال:

- (توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئا أشد منهما... ولا تنظر في صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت) صفة الصفوة لابن الجوزي.

قال عدي بن زيد:

□

مقدمة

نحمدك اللهم ونستهديك، ونستعين بك ونتوكل عليك، ونصلي ونسلم صلاة طيبة زاكية مباركة على من ختمتَ به الشرائع، وأرسلته رحمة للعالمين، سيدنا محمدﷺ، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الذين اصطفيتهم من خلقك، وائتمنتهم على تبليغ شرعك الشريف إلى الناس كافة.! اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، إنّك لا تُخلف الميعاد.!

أمّا بعد:

فكل مسافر إذا أراد سفرا طويلا لابد له أن يتزود بزاد لسفره، فإذا لم يكن له زاد فلا يستطيع السفر، وإذا بدأ السفر فلا يستطيع من مواصلته. وزاد المسلم هو الإيمان الحق، فهو الذي يجدد فيه القوة، ويبعث فيه الحيوية والقدرة على السير في الطريق الصحيح من غير أن ينحرف ذات اليمين أو ذات الشمال. وما مثل الزاد الروحي للمسلم إلا كمثل السيارة، فإنّها تظل تعمل وتقطع المسافات الطويلة ما دام وقودها متوافرا فيها، فإذا نفد الوقود ولم يُجدد لها، تصير قطعة من الحديد لا تُعين صاحبها على الوصول إلى البلد الذي يريد. وهكذا الأمر بالنسبة للزاد الروحي للمسلم من تقوى الله وطاعته، وعبادته العبادة الصحيحة، وتزكية نفسه، وتهذيب سلوكه على منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ لأنّ الزاد الروحي هو الذي يشحذ الهمم، ويقوّي العزائم، وهو طريق الفلاح ودرب النجاح، وصاحبه تبعث فيه قوة روحية عجيبة، وتكون له شخصية قوية فذة، تؤثر بنفوس الناس وأرواحهم ومهجهم، ويجد صاحب هذا الزاد الطمأنينة والراحة والسعادة الحقيقية التي يفتقدها غيره. ونقرأ

تاريخ الذين أثّروا بالمجتمعات الإسلامية تأثيرات واضحة، فنراهم ممن تزودوا بزاد روحي كبير، والله ﷻ بعث نبيه محمداﷺ ليزكي نفوس من بُعث فيهم، ويحلّيهم بفضائل ومكارم الأخلاق، فقال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ ﴾ سورة الجمعة.

أجل إن المسلم بدون ذلك لا يكون إلا جثة هامدة، والله ﷻ يقول:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢ ﴾ سورة الأنعام.

لقد كتب كثير من أئمتنا العظام وعلمائنا الأفذاذ كتبا ورسائل قيمة في تزكية النفس والسلوك، وكان لهذه الكتب والرسائل أثرها البالغ في تقويم الخُلق واعتدال السلوك في عصرهم وبعد عصرهم، وإلى يوم الناس هذا، ينهلون من فيضه العذب، ومائه الزلال. ويمضي الزمن، ويعيش الناس في القرن الواحد والعشرين وقد حفّت أبناءه المغريات من كل جانب، وتعددت مشاغل الناس أكثر من ذي قبل: فانشغل قسم منهم بالكد والتعب من أجل الحصول على لقمة العيش، –وهو ضرورة من الضروريات– وانشغل قسم ثانٍ من مثقفينا بالمبتكرات التكنولوجية التي أخذت بالألباب، وأذهلت العقول، وانشغل قسم ثالث بالقضايا السياسية التي لا تستقر على حال من الأحوال، وكيف يكون لها استقرار، وقد بُني الكثير منها على الكذب والدجل والمراوغة والمخادعة...! والمنعم النظر في حال مجتمعنا، يرى أنّه بحاجة ماسّة إلى

الزاد الروحي؛ ليتغذى به المسلمون عامة والشباب خاصّة؛ لعلّهم يحافظون على شخصيتهم ولا يذوبون في بوتقة الحضارة الغربية الوافدة.

ولابد لي أن أشير هنا إلى أنّ العمل في تزكية النفس والتربية الروحية يُمثّل جوهر الإسلام الصحيح، والأصل فيه: التطبيق العملي وليس الكلام وحده. فإنّ الكلام في تزكية النفس والسلوك والدعوة إلى الزهد والورع والتقوى يقدر عليه كل أحد، ولكن لا يستطيع أن يمارس ذلك ممارسة عملية إلا الأفذاذ من عباد الله الصالحين، أولئك الذين ذاقوا لذة العبادة فكانت سلوتهم في الحياة.

وهذا الكتاب المتواضع يبحث في قضايا مهمة تؤدي –إن شاء الله– إلى تقوية الجوانب الروحية لدى المسلم إذ تذكّره بموضوعات مهمة منها: الإخلاص، وصلاة الجماعة، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، والدعاء، والتوبة، وذكر الموت، والزهد، وإنفاق المال في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله، ومداخل الشيطان إلى النفس البشرية، وخاتمة في حسن الخاتمة.

وقد ركزت في مباحث الكتاب على ما ورد في القرآن الكريم أولا، وفي السنة النبوية الشريفة ثانيا، وفي نماذج من صحابة النبيﷺ بعد ذلك، مع شيء من الشرح والتعليق، وقصرت الحديث على هذه المنابع الثلاثة لأنّي لم أجد –في حدود معرفتي– كتابا اقتصر على هذه الثلاثة فقط، وسميته (رقائق إيمانية في تزكية النفس وتقويم السلوك). وقد نسبت الآيات إلى سورها، وخرّجت الأحاديث ليطمئنّ القارئ إلى حكمها في الصحة أو الحسن، مكتفيا بذكر عدد قليل ممن أخرجها؛ لأنّ الكتاب ليس بكتاب حديث. وهناك موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن موضوعات هذا الكتاب لم اتطرق إليها

خشية الإطالة. ولعلّ ما ذكرته هنا يكون سببا في تزكية النفوس وتقويم السلوك.

وأرى من الواجب عليّ أن أردّ الفضل إلى أهله، فأعترف أنّي أفدت من كتاب (في التزكية والسلوك) لأخي الفاضل الداعية الأستاذ عدنان سعد الدين تغمده الله برحمته الواسعة! والله أسأل أن يجعل عملي هذا وغيره من الأعمال خالصا لوجهه الكريم، وينفعني به يوم الدين، مؤملا أن لا ينساني القارئ الكريم من صالح دعواته! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل!.

إبراهيم النعمة

الفاتح من شوال/١٤٣٢

الإخلاص

الإخلاص شعبة من شعب الإيمان، بل هو من أرفع تلك الشعب. والمراد به: أن يكون كل قول من أقوال المسلم أو عمل من أعماله مرادا به وجه الله والدار الآخرة، من غير نظر إلى جاه أو مثوبة من أي إنسان كان. فهو ثمرة من ثمرات التوحيد الخالص لله، ومحله القلب لا يطلع عليه أحد من الناس. والعمل مهما عظم بلا إخلاص يعد جسدا بلا روح. وقد أراد الله تعالى منا حقيقة العمل وليس صورته. وقد تحدث الإمام الغزالي عن حقيقة الإخلاص وأنه طريق السعادة الحقيقية فقال:

(فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان، وأنوار القرآن، أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء)[1]

وأشار العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله إلى أن الإخلاص وحب الثناء والطمع لا يجتمعان في قلب إنسان فقال:

(لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فاقبل على الطمع أولا فأذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح

---

(١) إحياء علوم الدين تأليف الإمام أبي حامد الغزالي ٣/٥، ضبط نصه وخرّج أحاديثه: محمد محمد تامر، الطبعة الأولى ١٤٢٤-٢٠٠٤، مؤسسة المختار، القاهرة.

والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص)[١].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم. فإذا عمل الإنسان عملا يبتغي به غير وجه الله تعالى، فإنه يرمى به في وجهه يوم القيامة. فمن تصدق مباهاة، وطلب العلم ليقال له عالم، أو قاتل من أجل أن يقال فيه إنه جريء شجاع ....إن كل واحد من هؤلاء وأشباههم يحبط عمله، ولا ينتفع منه يوم القيامة، والله تعالى يقول ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الفرقان.

(فالاخلاص هو قارب النجاة لكل السائرين والسالكين .. إنه طريق الهدى والتقى، وهو المفتاح لكل أبواب الخير، بل هو السر الرباني الذي استودعه الله قلوب عباده الذين يحبهم ويحبونه)[٢].

(والإخلاص أمره عظيم، وسبيل الحصول عليه ليس بالأمر اليسير، فلا بد من مجاهدة النفس للحصول عليه، وقد سئل سهل بن عبد الله التستري: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: [الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب])[٣].

---

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية ص١٤٩، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) في التزكية والسلوك تأليف: عدنان سعد الدين ص٤٤، الطبعة الثانية، ١٤٢٨-٢٠٠٧، دار عمار، عمان، الأردن.

(٣) مدارج السالكين لأبن قيم الجوزية ٩٢/٢، تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية ١٣٩٣-١٩٧٣، دار الكتاب العربي، بيروت.

الإخلاص في القرآن الكريم

تكاثرت آيات القرآن الكريم في الدعوة إلى إخلاص القول والعمل لله وحده –وبخاصة الآيات المكية– ذلك أن الإخلاص يمثل التوحيد الذي قام عليه هذا الدين، وأمر به كل نبي من أنبياء الله، وكل رسول من رسله يقول اللهﷻ:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة الزمر.

وتوالت آيات القرآن نزولا على النبيﷺ تأمره بإخلاص الدين لله وابتغاء وجهه الشريف، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾سورة الزمر/ ٢ – ٣.

وقال:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ سورة الأنعام.

وقال:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾سورة الكهف/٢٨.

وقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ

ﭐلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ ﴾ سورة النساء.

وقال:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ سورة البينة.

ومدح الله الذين صبروا على مشقة الطريق ابتغاء وجه الله فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الرعد.

ولا تكون الأعمال الطيبة من الصدقات والإصلاح بين الناس وغيرهما مقبولة عند الله إلا إذا كان العمل يبتغى به مرضاة الله، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾ سورة النساء.

وقد أمر الله تعالى الناس أن يخصوه بالعبادة وحده ويخلصوا طاعتهم فيها، مبتغين بذلك وجه الله، فقال تعالى:

﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة الأعراف.

الإخلاص في أحاديث النبيﷺ

وكما كثرت الآيات التي تحضّ المسلم على الإخلاص في القرآن الكريم، فقد كثرت –أيضا– أحاديث النبيﷺ في هذا، من ذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه:

«إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه»(١).

ولفظ الأعمال في الحديث: «إنما الأعمال بالنيات» يشمل الأقوال والأعمال؛ لأن المراد قصد عمل الجوارح ، ومنها: اللسان. ولأهمية هذا الحديث ذكر الإمام الشافعي أنه يدخل في سبعين باباً من أبواب الفقه. وهو ينص على أن الأعمال والأقوال لا تقبل إلا بإخلاص نية صاحبها لله، فإن كانت النية لغير وجه الله، فإن الله تعالى يترك عمله لذلك الشريك، ولذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك: من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(٢).

وحذر النبيﷺ من يعمل عملا لغير وجه الله تعالى فقال:

«إِنَّ أَوَّلَ الناس يُقْضَى يوم الْقِيَامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلْتَ فيها قال قَاتَلْتُ فِيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ قال كَذَبْتَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللهﷺ...) ١/١، حديث ١، طبعة دار الفيحاء ودار السلام، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: قول النبيﷺ: إنما الأعمال بالنية) ٨٥٣/١، حديث ٤٩٢٧، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: من أشرك في عمله غير الله) ٢٢٨٩/٤، حديث ٢٩٨٥.

وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلْتَ فيها قال تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قال كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هو قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عليه وَأَعْطَاهُ من أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلْتَ فيها قال ما تَرَكْتُ من سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لك قال كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ»(١).

إن هذه الأعمال من القتال في المعركة ضد المشركين، وتعلم العلم، وقراءة القرآن، وإنفاق المال للفقراء وذي الحاجة هي من الأعمال الطيبة، لكنها لا تنفع صاحبها؛ إذا لم يقصد بها وجه الله.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءا أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٢).

إن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة تقاتل مع الصف الإسلامي إذا دعا داعي الجهاد، لكنهم لا ينتفعون من قتالهم في الدار الآخرة شيئا؛ ذلك

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار)، ٣/١٥١٤، حديث ١٩٠٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري بارقام ١٢٣و٢٨١٠و٣١٢٦و٧٤٥٨، ومسلم واللفظ له في كتاب الإمارة (باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ٣/١٥١٣، حديث ١٩٠٤.

لأن كل صنف من هذه الأصناف كانت له نيته الخاصة به في قتاله: فالأول قاتل شجاعة، والثاني قاتل أنفة ومحاماة عن عشيرته، والثالث قاتل ليرى الناس قتاله فيحمدوه. إنّ هذه النيات الثلاث ليست في ميزان الله في شيء، ولا يصح أن توضع مع الإخلاص، فقد أخذ كل صنف من هؤلاء حظه في الدنيا، ولا حظ له يوم القيامة، أما من قاتل ليعلي كلمة الله، فهو المجاهد في سبيل الله الذي يأخذ حظه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقال النبيﷺ:

«إنّ الله لا ينظر إلى اجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم —وأشار باصبعه إلى صدره–»[١].

وقال:

«ثَلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[٢].

وقال:

«...ثلاث لا يغل (يخون) عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[٣].

وقالﷺ لمعاذ بن جبل:

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: تحريم ظلم المسلم) ١٩٨٧/٤ حديث ٢٥٦٤.

(٢) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ص١٨، حديث ٢٦، دار الحديث القاهرة ١٤٢٤–٢٠٠٣.

(٣) رواه ابن ماجه ١٠١٦/٢، حديث ٣٠٥٦.

«أخلص العمل يجزك القليل منه»[1].

ويبدو من هذا الحديث أن قبول العمل لا يتوقف على كثرته، بل يتوقف على الإخلاص فيه. وهذه الأحاديث –وغيرها كثير– تنصُّ على أهمية النية في كل قول يقوله المسلم وعمل يعمله.

الرياء[2]

ويقابل الإخلاص الرياء: وهو نوع من أنواع الشرك في العبادة. وقد سماه رسول الله ﷺ بالشرك الأصغر، وهو محبط للعمل، وليس له ثواب. وصورته: أن يطلب الإنسان المنزلة والتعظيم عند الناس بعمل الآخرة: كالذي يصوم ويصلي ليعظمه الناس ويثنوا عليه. يقول الله ﷻ:

﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ سورة الكهف/ ١١٠.

وقد ورد في سبب نزول الآية: (أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبي الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، وأحب أن يرى مكاني، فأنزل الله تعالى هذه الآية)[3].

وقال تعالى:

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٣٤١/٤، حديث ٧٨٤٤، والديلمي في الفردوس كلاهما عن معاذ بن جبل ٤٣٥/١، حديث ١٧٧٢.

(٢) عن كتابنا: فقه الداعية ص١١٣–١١٥، ١٤٣١–٢٠١٠، مطبعة استثمار الوقف السني، بغداد.

(٣) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٣٠٨.

﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ سورة الماعون.

وقد كان ﷺ يخاف على أمته من الشرك الأصغر. ومن أحاديثه في هذا قوله:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء. إن الله –تبارك وتعالى– يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا: هل تجدون عندهم جزاءاً»[1].

وقوله –صلوات الله وسلامه عليه–:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان اشرك في عمل عمله لله – تبارك وتعالى – احداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ﷻ فإن الله ﷻ أغنى الشركاء عن الشرك»[2].

وقوله ﷺ:

«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلاّ ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤٢٨/٥ – ٤٢٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٣٣٨/١٢، حديث ١٥٧٨٢.

(٣) رواه أبو داؤد في كتاب العلم (باب: في طلب العلم لغير الله تعالى). عون المعبود ٥٦/١٠، حديث ٣٦٦١.

آثار الرياء

وللرياء آثار سيئة ينالها المراءون منها:

١- عدم قبول أعمالهم. قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الفرقان.

فلم تنفع هذه الأعمال أصحابها، لأنها كانت خالية من الإخلاص لله وحده، وقد سئل الفضيل بن عياض –رحمه الله– عن العمل المقبول عند الله فقال: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: (إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة) [1].

٢-يكون المرائي مبغوضاً عند الناس، لأن الله يبغضه. قال النبي ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: إني أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض»[2].

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٨٩/٢. بتحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية ١٣٩٣-١٩٧٣، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده) ٢٠٣٠/٤.

٣- المراءون أول من تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة. قال النبي ﷺ:
«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجلٌ أستشهد، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار»[١].

هذه الآثار السيئة للمرائين وغيرها، هي التي جعلت الصحابة يخافون من هذا الداء، فكانوا يدعون الله أن تكون أعمالهم خالصة لوجه الله، لئلا يصيبهم من آثار هذا المرض ما يصيبهم، فكان من دعاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
(اللّهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً)[٢].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار) ٣/١٥١٤.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ص ١١٢. صححه وعلق عليه: عبد الوهاب فايد، مطبعة محمد علي صبيح ١٣٧٧-١٩٥٨.

لذلك على المسلم أن يكون يقظاً في كل قول يقوله وعمل يعمله، بل في كل خلجة من خلجات نفسه، ليطرد ما يعكر على القلب إيمانه، ويشوه نقاءه، فلا يعمل العمل إلاّ لله.

علاج الرياء

إن حمل المسلم نفسه على الإخلاص وتصفيتها من أية شائبة كانت من شوائب الرياء ليس بالأمر الهين، لأن ذلك يعني أن يتغلب المسلم على حظوظ نفسه وأغراضها الدنيوية؛ فلا يستطيع أن يصل إلى الإخلاص الصحيح إلا بالمجاهدة الشديدة والمراقبة الدائمة للشيطان ومداخله وما أكثر مداخله! فإذا أصيب المسلم بهذا الداء الوبيل والشر المستطير الذي يورد صاحبه موارد الهلكة إذ يقوده إلى جهنم وبئس المصير، فلا بد له أن يعمل على التخلص منه،ودفعه بأية وسيلة كانت، وأهم تلك الوسائل وسيلتان:

الأولى: اقتلاع جذوره من النفوس، ويكون في الخطوات الآتية:

أ- أن يراقب المسلم ربه ﷻ مراقبة دقيقة في كل أقواله وأعماله ونياته، متذكراً أنه -تبارك وتعالى- يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور: فيراقب المسلم نفسه قبل أن يأتي العمل، وحين البدء، وفي أثنائه سائلاً نفسه: هل كانت نيتي في الإقدام على العمل أو الإحجام عنه رضوان الله أم لا؟

ب- أن يتذكر أن الرياء محبط للعمل، وان مصير المرائين إلى جهنم... وأنه الخطر الكبير الذي يهدد مستقبل المرائين، فكيف لا يعمل على التخلص منه؟

ج- أن يُعوِّد نفسه على القيام بأعمال خفية بعيدة عن أنظار الناس، ليكون بعيداً عن الرياء: كصلاة النافلة، والتصدق على الفقراء... الخ.

الثانية: دفع ما يخطر في باله في الحال، وذلك بتذكره أن الله ﷻ عالم بحال الإنسان، مطلع على أعماله: فهو يرجو رضوان الله فقط، لايهمه أطلع الناس على ما يقدمه من طاعات أم لم يطلعوا، ما دام يبتغي رضوان الله، ويطمع في جنته.

وبهذا التفكير ومجاهدة النفس من نزغات الشيطان، يتخلص الإنسان من الرياء أو يكاد...!

ولا تظنن أخي -المسلم- أن الشيطان يتركك إن لم يفلح في إغوائك مرة واحدة، بل يعود إليك مرات ومرات، ملقياً ما يستطيع إلقاءه من نزغات النفس، وحين يعمل المسلم بجد على دفع ما يخطر في باله في الحال يتمكن من مقاومة هذا الداء الوبيل داء الرياء...![١].

إخلاص الصحابة

كل من يقرأ ما كان عليه الصحابة من حرصهم على الإخلاص لله في كل قول يقولونه وعمل يعملونه، يرى اهتمامهم الكثير بأمر الإخلاص؛ ذلك لأن مداخل الشيطان إلى النفس البشرية كثيرة، توسوس في نفس الإنسان لتجعله يبتعد عن مرضاة الله؛ طلبا للدنيا. ولما كانت آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبيﷺ كثيرة في الدعوة إلى إخلاص القول والعمل، فقد صارت توصياتهم ومواقفهم كثيرة كثيرة، وهذه أمثلة على ذلك:

١-قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعودﷺ يوصي إخوانه وتلاميذه: (كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ الْهُدَى، أَحلاسَ الْبُيُوتِ، سُرُجَ اللَّيْلِ، جُدُدَ

---

(١) عن كتابنا فقه الداعية ١١٣-١١٥.

الْقُلُوبِ، خُلْقَانَ الثِّيَابِ، تُعْرَفُونَ في أَهْلِ السَّمَاءِ، وَتَخْفَوْنَ على أَهْلِ الأرض)[1].

٢- خَرَجَ عمر بن الخطابﷺ يَوْمًا إلى مَسْجِدِ رسول اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ مُعَاذَ بن جَبَلٍ قَاعِدًا عِنْدَ قَبْرِ النبيﷺ يَبْكِي فقال: ما يُبْكِيكَ؟ قال: يُبْكِينِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ من رسول اللَّهِ ﷺ، سمعت رَسُولَ اللَّهِﷺ يقول: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَإِنَّ من عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إذا غَابُوا لم يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لم يُدْعَوْا ولم يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ من كل غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ»[2].

إنها الحساسية من الوقوع في أي لون كان من ألوان الشرك –ولو كان ضئيلا– لأن مداخله إلى النفس الإنسانية كثيرة. ومحاسبة النفس هكذا تربي في المسلم الإخلاص الذي دعا إليه القرآن الكريم، ودعا إليه رسول اللهﷺ.

٣–قال سليم بن حنظلة: (بينا نحن حول أُبيّ بن كعب نمشي خلفه إذ رأى عمر، فعلاه بالدرة! فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع)[3].

٤–قال الطبري: (لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما أرينا مثل

---

(١) اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين لمحمد الزبيدي ١٠/١٦–١٧، الطبعة الأولى ١٤٠٩–١٩٨٩، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن (باب: من ترجى له السلامة من الفتن) ٢/١٣٢٠–١٣٢١، حديث ٣٩٨٩، والحاكم في المستدرك ٤/٣٦٤، حديث ٧٩٣٣.

(٣) اتحاف السادة المتقين للزبيدي ١٠/١٠.

هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه؛ فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه؛ فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس)[١].

هكذا يستعلي الإيمان على متاع الدنيا مهما كثر. فقد حصل هذا الرجل على مال كثير لا يقدر بثمن لمّا فتحوا المدائن، ولو أراد أن يخفيه ويأخذه لنفسه لكان من أغنى الناس، لكنه الإيمان مع النية الخالصة لله يمثله قوله (أما والله لولا الله ما أتيتكم به) وحين طلبوا منه أن يعرفهم باسمه أبى ذلك وقال: (لا والله لا أخبركم لتحمدوني). إنه الإخلاص في صورة من أبهى الصور.

٥-عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي وهو بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ يقول قال رسول اللَّهِﷺ «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ فقال: يا أَبَا مُوسَى، آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. قال: فَرَجَعَ إلى أَصْحَابِهِ فقال: أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلامَ. ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، فَأَلْقَاهُ ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إلى الْعَدُوِّ فَضَرَبَ بِهِ حتى قُتِلَ)[٢].

٦-عن شداد بن الهاد ﷺ: أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبيﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال: أُهاجر معك، فأوصى به النبيﷺ بعض أصحابه، فلمّا

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٤٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: ثبوت الجنة للشهيد) ١٥١١/٣، حديث ١٩٠٢.

كانت غزوة غنم النبيﷺ سبيا؛ فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبيﷺ؛ فأخذه فجاء به إلى النبيﷺ فقال: ما هذا؟ قال (قسمته لك) قال ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا –وأشار إلى حلقه بسهم–؛ فأموت، فأدخل الجنة فقال: «إنْ تصدق الله يَصدقك»، فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو؛ فأتي بهﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار؛ فقال النبيﷺ: «أهو هو؟!» قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه» ثمّ كفنه النبيﷺ في جبة النبي، ثم قدّمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته:

«اللهم هذا عبدك، خرج مهاجرا في سبيلك، فقتل شهيدا، أنا شهيد على ذلك»[١].

إنّ هذا الأعرابي يعلمنا الإخلاص كيف يفعل فعله في نفس المسلم: فقد كان حديث عهد بالإسلام، لم يمضِ على إسلامه غير وقت يسير، ولم يتعلم من الصحابة إلا اليسير؛ لقلة المدة بين إسلامه واستشهاده، لكن إيمانه الصحيح بالله كان قد تغلغل في صميم قلبه، فصارت الجنة مبتغاه، ولا شيء غيرها، وقد صدق الله فصدقه.

٧–روى الطبري في تفسيره قال:

(كان أبو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز

---

(١) رواه النسائي في كتاب الجنائز (باب: الصلاة على الشهداء) ٢/٤٣–٤٤، حديث ١٩٥٢، صحيح سنن النسائي لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى ١٤١٩–١٩٩٨، مكتبة المعارف، الرياض.

ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تعتق أناسا ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالا جلدا يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال: أي أبت، إنما أريد -أظنه قال- ما عند الله. قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[1]

(إنما أريد ما عند الله!) ما أجملها من كلمة قالها الصديق، ونزلت الآيات تثني عليه وعلى كل صاحب عمل طيب . ويكفيه أنه يسره الله لليسرى، فقد وصل قمة السعادة ووفقه الله في حياته كلها، وهذه ثمرة من ثمرات الإخلاص لله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ٤٩٥/٢٧ بتحقيق: مكتب التبيان للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٣٠-٢٠٠٩، دار ابن الجوزي القاهرة. ورواه الحاكم في المستدرك ٥٧٣/٢، حديث ١٠٨٠/٣٩٤٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

من وصايا السلف

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن من علماء السلف من كثرت كلماتهم ووصاياهم في حض الناس على التمسك بالإخلاص قولا وعملا؛ فقال أيوب السختياني:

(والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه)[١].

وقال بشر:

(ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح) [٢].

وقال الفضيل بن عياض:

(إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله)[٣].

وتبدو ثمرة المسلم المخلص واضحة من تأثير كلامه بالناس، فقد قال الشيخ النحاس:

(من أخلص النية، أثّر كلامه في القلوب القاسية فلينها، وفي الألسن الذربة فقيدها، وفي أيدي السلطة فعقلها)[٤].

ولمّا سأل (ذر بن عمر) والده : ما بال المتكلمين يتكلمون ولا يبكي أحد، وإذا تكلمت أنت سُمع البكاء من هنا وهنا؟ فردّ عليه والده بقوله: يا بني،

---

(١) إتحاف السادة المتقين ١٠/١٠.

(٢) إتحاف السادة المتقين ١٠/١٠.

(٣) إتحاف السادة المتقين ١٠/١٠.

(٤) فقه الدعوة في إنكار المنكر تأليف: عبد الحميد البلالي ص٤٦، الطبعة الثالثة ١٤٠٩-١٩٨٩، دار الدعوة الكويت.

ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى)[1].

ولا بد أن نشير هنا إلى أنّ إخلاص النية لله لا يكون بإظهار التخشع أمام الناس، ولا بارتداء الملابس البذلة، ولكن باصلاح السريرة مع الله. فكم من الناس لم يعرف عنهم كثير صلاة ولا كثير صيام، وقد قذف الله محبتهم في القلوب، وكم ممن عرف بالصلاة والصيام تنبو عنهم القلوب يقول ابن الجوزي رحمه الله:

(والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك. ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته. فتدبرت السبب فوجدته السريرة...، فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه. فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر)[2].

وما أسعد من يهتم برضى الله وحده ولو سخط عليه الناس؛ فإن الساخطين عليه سرعان ما يعودون إلى أنفسهم ويرضون عنه، وقد قال النبيﷺ:

«من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس

(١) عن كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٥٧، ١٣٩٨-١٩٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي ص٢٢٠، بعناية حسن السماحي سويدان، الطبعة الأولى ١٤٢٥-٢٠٠٤، دار القلم، دمشق، سوريا.

رضاء الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»[١]

وفي رواية أخرى:

«من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[٢].

إن الإنسان فيه ما فيه من الغرور والجهالة، ولولا ذلك لما طال واستطال وشمخ بأنفه وأشرك في قوله أو عمله غير الله تعالى. ولو تأمل الإنسان بقدرة الله تعالى، وعلم أن الحياة والموت، والغنى والفقر، والرفعة والذلة بيد الله وحده، وآمن بذلك إيمانا صحيحا تغلغل في سويداء قلبه، لما وقع بالشرك في قوله أو عمله.

وقد أدرك الصحابة الكرام هذه الحقيقة بالتربية القرآنية وتربية النبي الكريم لهم، فوضعوا رضاء الله أمام أعينهم؛ فسعدوا السعادة المثلى.

ندعو الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين المخلصين الصادقين الملتزمين بنور هدايته.

□

---

(١) رواه الترمذي ص ٥٤٤، حديث ٢٤١٤، وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢٣١١.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب، ١/٣٠٠، تحقيق: حمدي السلفي، الطبعة الثانية ١٤٠٧-١٩٨٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٤/٢٠، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروني، الطبعة الأولى ١٤١٨-١٩٩٧، دار الفكر، بيروت.

صلاة الجماعة[1]

الركن الثاني من أركان الإسلام: هو ركن الصلاة. وقد نصّ النبيﷺ على أنّ هذا الركن هو عمود الدين، وأوّل ما يحاسب عليه العبد المؤمن يوم القيامة، وهو من أجلّ القربات إلى الله تعالى.

والصلاة قوة روحية تجعل صاحبها يتغلب على متاعب الدنيا ومشقاتها إذا أداها كما أرادها الله –سبحانه– لذلك قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ سورة البقرة.

وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول لبلال:

«أرحنا بها».

ودعا النبيﷺ إلى إقامتها، وحذّر من التفريط بها، وجعلها حدا فاصلا بين الكفر والإيمان، فقال:

«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[2].

وحين يقف المسلم بين يدي الله خمس مرات في اليوم والليلة مصليا، فتكون تلك الصلاة كالحمّام الروحي، تزيل ما علق بنفسه وروحه من أدران

---

(١) أفدت في كتابة هذا المبحث من كتاب: (أهمية صلاة الجماعة) تأليف الدكتور: فضل إلهي، الطبعة السابعة ١٤١٨–١٩٩٧، دار ابن حزم، بيروت.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الإيمان (باب: ما جاء في ترك الصلاة) ص٥٩١، حديث ٢٦٢١، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (باب: ما جاء فيمن ترك الصلاة) ١/٣٤٢، حديث ١٠٧٩.

وأوساخ وغفلات وخطايا؛ فيفوق من غفلته، ويعود إلى رشده، ويرجع إلى ربّه. ويشير النبيﷺ إلى هذا المعنى فيقول:

«أرأيتم لو أن نَهَرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟». قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا»[1].

والصلاة التي يريدها منّا هذا الدين لا تكون كلمات يتلفظ بها اللسان وتؤديها الجوارح من غير تفكّر فيها ولا تدبر، بل هي الصلاة التي يكون القلب فيها حاضرا، والخشوع قد ملك الفؤاد، فيتذكر المصلي في صلاته عظمة الخالق المعبود الذي يقف بين يديه.

ولقد فُرضت الصلاة على النبيﷺ وعلى المسلمين في مكة قبل أن يهاجر النبيﷺ إلى المدينة بنحو ثلاث سنوات. وإذا كانت العبادات كلها قد فرضت في الأرض، فإنّ الصلاة وحدها فرضها الله في السماء ليلة الإسراء والمعراج. وظلّ النبيﷺ ومن معه من الصحابة في مكة يصلون فرادى؛ خشية من بطش المشركين بهم، إلى أن تمت هجرة النبي المباركة إلى المدينة المنورة، فبدأ أول ما بدأ به: ببناء المسجد والصلاة فيه جماعة، قبل أن يبدأ عليه الصلاة والسلام ببناء بيت له.

وصلاة الجماعة فوق كونها عبادة من أجلّ العبادات، فهي تدخل المحبة

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة (باب: الصلوات الخمس كفارة) ص٢٠٠، حديث ٥٢٨، ومسلم –واللفظ له– في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب: المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا) ٤٦٢/١-٤٦٣، حديث ٦٦٧.

والمودة بين قلوب المسلمين؛ إذ يلتقي المسلمون في المسجد كل يوم وليلة خمس مرات: فيكون التعارف والتآلف: فيساعد الغني الفقير، والقوي الضعيف، ويقف الكبير بجانب الصغير، والقائد بجانب الجندي في صفّ الصلاة...الكل في العبادة سواء: ربهم واحد، ونبيهم واحد، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح. وهكذا تتحقق المساواة في صلاة الجماعة في صورة من أبهى الصور.

فضل صلاة الجماعة

دعا النبيﷺ إلى الاهتمام بصلاة الجماعة، ورغّب بها، وحضَّ عليها، وحذّر من التفريط بها، فقالﷺ:

«لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»(١).

وفي هذا الحديث لم يبين النبيﷺ حقيقة ما أعد الله للمؤذنين ولمن يصلي في الصف الاول ولمن يصلي جماعة في المسجد في صلاتي العشاء والصبح؛ ليشير إلى عظم الأجر الذي لا يدخل تحت الوصف.

ولقد بشر النبيﷺ من توضأ ثم مشى الى المسجد فصلى الصلاة المكتوبة بغفران الله ذنوبه، فقالﷺ:

«من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: الاستهام في الأذان) جزء من حديث ٦١٥، ومسلم في كتاب الصلاة (باب: تسوية الصفوف وإقامتها...) ١/٣٢٥، حديث ٤٣٧.

فصلاها مع الناس، أو مع الجماعة، أو في المسجد، غفر الله له ذنوبه»[١].

وقال:

«من غدا إلى المسجد وراح، أعدّ اللهُ له نُزُلَهُ من الجنة كلما غدا أو راح»[٢].

وقال:

«إذا تطهّرَ الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة، كتب له كاتباه -أو كاتبه- بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت، ويكتب من المصلين، من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه»[٣].

وإذا كانت صلاة المنفرد في درجة واحدة، فإنّ الصلاة في جماعة تتضاعف حسناتها إلى خمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة، وذلك قول النبيﷺ:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة»[٤].

وفي رواية:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[٥].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه) ٢٠٨/١، حديث ٢٣٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: فضل من غدا إلى المسجد ومن راح) ص٢٢٦، حديث ٦٦٢، ومسلم في كتاب المساجد (باب: المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا) ٤٦٣/١، حديث ٦٦٩، والمراد بالغدو: الذهاب، وبالرواح: الرجوع.

(٣) رواه الإمام أحمد بسند حسن ٣٧٣/١٣.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص٢٢٣، حديث ٦٤٦.

(٥) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص٢٢٣، حديث ٦٤٥.

والصلاة في المساجد التي يكثر المصلون فيها، ينالهم من الثواب أكثر من الصلاة في غيرها، فقال النبيﷺ:

«...وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله ﷻ»(١).

وقبل أن يشرع المسلم بالصلاة جماعة في المسجد، يُكتب له الثواب حين يخرج للصلاة فيها، فيُكتب له الأجر في كل خطوة يخطوها إلى المسجد. روى جابر بن عبد اللهرضي الله عنه قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد. قال: والبقاع خالية، فبلغ ذلك النبيﷺ فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم». فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا(٢).

قال الإمام النووي شارحا لهذا الحديث:

(الزموا دياركم، فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد. وبنو سلِمة –بكسر اللام– قبيلة معروفة من الأنصار رضي الله عنهم)(٣).

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«إنّ أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم. والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصليها ثم ينام». وفى رواية أبى كريب: «حتى يصليها مع الإمام في جماعة»(٤).

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: في فضل صلاة الجماعة) ص١٠٣، حديث ٥٥٤ وإسناده حسن.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد) ٤٦٢/١، حديث ٦٦٥.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٩/٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد) ٤٦٠/١، حديث ٦٦٢.

ولا تُكتب آثار وخطوات قاصد المسجد عند قدومه إلى المسجد فقط، بل تُكتب عند عودته من المسجد أيضا.

وكثرة الخطا إلى المساجد من أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات، فقال صلوات الله وسلامه عليه:

«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»(١).

والرباط: الإقامة على جهاد العدو في الحرب. فقد شبّه النبيﷺ هذه الأعمال الصالحة –ومنها كثرة الخطا إلى المساجد– بالجهاد في سبيل الله.

والخروج من البيت متطهرا إلى صلاة مكتوبة أجر صاحبها كأجر الحاج المحرم. فكأن الذي يصلي الصلوات الخمس في جماعة له من الأجر ما للحاج المحرم خمس مرات، وذلك قولهﷺ:

«مَنْ خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاج المحرم»(٢).

وبشّر النبيﷺ من صلى أربعين يوما في جماعة، يدرك فيها التكبيرة الأولى، بأنّ الله تعالى يكتب له براءتين: الأولى: براءته من النار فلا يعذّبه بها، والبراءة الثانية من النفاق، فلا يعتقد اعتقاد المنافق، ولا يعمل عمله،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره) ٢١٩/١، حديث ٢٥١.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الصداق (باب: ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة) ص١٠٣، حديث ٥٥٨.

وذلك قولهﷺ:

«من صلى لله أربعين يوما فى جماعة، يدرك التكبيرة الأولى، كُتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[1].

وما أسعد الإنسان حين يكتب الله له براءة من النار، وبراءة من النفاق! إنّه الفوز العظيم. ندعو الله أن يجعلنا منهم.!

وفي تبيان فضل صلاتي العشاء والفجر في جماعة، يُبشّر النبيﷺ أمته أعظم بشارة، فيذكر أنّ أجر صلاة العشاء في جماعة كقيام نصف الليل، وصلاة الفجر في جماعة كقيام نصف الليل أيضا، فيكون من صلى العشاء والفجر في جماعة كمن قام الليل كله. فعن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: دخل عثمان بن عفانرضي الله عنه المسجد بعد صلاة المغرب فقعد وحده، فقعدت إليه؛ فقال: يا ابن أخي، سمعت رسول اللهﷺ يقول: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة، فكأنما صلى الليل كله»[2].

وهناك بشارة من النبيﷺ أخرى: أنّ من تعلّق قلبه بالمساجد، يصير في ظلّ الله يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلا ظلّه، فقال صلوات الله وسلامه عليه:

«سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب

---

(١) رواه الترمذي (باب: ما جاء في فضل التكبيرة الأولى) ص٦٩، حديث ٢٤١، وهو حديث حسن.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل صلاة العشاء والصبح جماعة) ١/٤٥٤، حديث ٦٥٦.

نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد...»[١].

وتعليق القلب في المساجد لا يعني ملازمة القعود فيها، ولكن الحب لها، وصلاة الجماعة فيها. وكيف لا يُحب المسلم بيت الله وهو بيت كل تقي؟!

ولقد حذّر النبيﷺ تحذيرا تصطكّ منه الركب من ترك صلاة الجماعة، مبينا أنّ الشيطان يستحوذ على أهالي القرية أو البدو الذين لا تقام فيهم الصلاة جماعةً، وماذا يبقى للمؤمن من طاعة ربه إذا كان الشيطان قد استحوذ عليه، فقالﷺ:

«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان؛ فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[٢].

ويتحدث الصحابي الجليل عبد الله بن مسعودﷺ مرغبا بأداء صلاة الجماعة ومرهبا من التفريط فيها فيقول:

(من سره أن يلقى الله غدا مسلما، فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإنّ الله شرع لنبيكمﷺ سنن الهدى، وإنهنّ من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: الصدقة باليمين) ص٣٩٨، حديث ١٤٢٣، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: فضل إخفاء الصدقة) ٧١٥/٢، حديث ١٠٣١.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: التشديد في ترك الجماعة) ص١٠٢، حديث ٥٤٧.

النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف)[1].

ومعنى «يهادى بين الرجلين»: أي يتساند على رجلين من شدة ضعفه، ويتحمل مشقة الذهاب؛ حباً في تحصيل الأجر والثواب.

لقد كان الصحابة يحافظون على الصلوات في المسجد جماعة، وبخاصة في صلاتي العشاء والصبح، وكان منهم مَنْ يرى أنَّ صلاتي العشاء والصبح في جماعة، أفضل من قيام الليل، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(لأنْ أُصليهما –صلاتي العشاء والفجر– في جماعة، أَحبُّ إليّ من أن أُحيي ما بينهما)[2].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(لأنْ أُصلي الفجر والعشاء الآخرة في جماعة، أَحبّ إليّ من أن أُحيي ما بينهما)[3].

أما صلاة الفجر والعصر، فان ثوابهما كبير؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيهما، وتستغفر لمن صلاها جماعة،فيقول النبي صلى الله عليه وسلم:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم –وهو أعلم بهم–: «كيف تركتم عبادى؟»؛ فيقولون: «تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى) ٤٥٣/١، حديث ٦٥٤.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات (في التخلف في العشاء والفجر، وفضل حضورهما) ٢٩٣/١، حديث ٣٣٥٨.

(٣) الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير، تأليف القاضي شرف الدين الحسين بن أحمد السياغي ١١٦/٢، الطبعة الثانية ١٣٨٨، مطبعة المؤيد، الطائف.

يصلون»[1].

حكم صلاة الجماعة

اختلف العلماء في حكم صلاة الجماعة على أقوال أهمها ما يأتي:

القول الاول: إنها واجبة. وهذا ما ذهب إليه الإمام أحمد، وفقهاء الحديث، وعدد من أئمة السلف، وأهل الظاهر، مستدلين بالكتاب والسنة والآثار:

أما الكتاب، فالايات المتحدثة في صلاة الخوف، قال تعالى:﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ** ﴾ سورة النساء/١٠٢.

فقد وردت الآية في صلاة الخوف، حيث وقف المسلمون في وجه العدو، فأمر الله تعالى نبيهﷺ أن يقيم الصلاة جماعة مع الصحابة؛ فتكون صلاة الجماعة في حالة الأمن أولى.

وقال تعالى:

﴿ **وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ** ﴿٤٣﴾ ﴾ سورة البقرة.

قال ابن الجوزي: (أي صلوا مع المصلين)[2].

وقال الكاساني في الآية نفسها:

(أمر الله تعالى بالركوع مع الراكعين، وذلك يكون في حال المشاركة في

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل صلاتي الصبح والعصر) ٤٣٩/١، حديث ٦٣٢.

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٧٥/١، الطبعة الأولى ١٣٨٤، المكتب الإسلامي، بيروت.

الركوع، فكان أمرا بإقامة الصلاة بالجماعة، ومطلق الأمر لوجوب العمل)[١].

وأمّا الأدلة من السنة فكثيرة، منها حديث النبيﷺ:

«والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلا فيؤمّ الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرّق عليهم بيوتهم»[٢].

لقد كان هؤلاء الذين همّ النبيﷺ بتحريق بيوتهم يصلون فرادى في بيوتهم، فجاءهم هذا التهديد لعدم حضورهم صلاة الجماعة؛ إذ لو كانت سنة لما هدد تاركها بتحريقه بالنار. قال الكاساني:

(ومثل هذا الوعيد لا يلحق إلاّ بتارك الواجب)[٣].

ومما استدل به القائلون بوجوب صلاة الجماعة: ما رواه أبو هريرةرضي الله عنه قال: (أتى النبيَّﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودنى إلى المسجد، فسأل رسول اللهﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له. فلما ولّى دعاه؛ فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» فقال: نعم. فقال: «فأجب»[٤].

وهكذا فعل النبيﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم، فلم يرخّص له في الصلاة

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني ١/١٥٥، الطبعة الثانية ١٤٠٦-١٩٨٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: وجوب صلاة الجماعة) ص٢٢٣، حديث ٦٤٤.

(٣) بدائع الصنائع ١/١٥٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: يجب إتيان المسجد على من سمع النداء) ١/٤٥٢، حديث ٦٥٣.

في بيته، وقد جاء ذكر قصته في عدد من أحاديث النبيﷺ المعروفة المشهورة.

ومن أدلتهم –أيضا– حديث النبيﷺ:

«من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر»[1].

وقال الترمذي:

(وقد رُوي عن غير واحد من أصحاب النبيﷺ أنهم قالوا: من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له)[2].

وأمّا الآثار فما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبرضي الله عنه قال: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد). فقيل له: يا أمير المؤمنين، ومَنْ جار المسجد؟ قال: (مَنْ سمع النداء)[3].

وهكذا روي –أيضاً– عن عبد الله بن مسعود، وعن عبد الله بن عباس، وأبي موسى الأشعري.

القول الثاني: قول جمهور الفقهاء، من المالكية والشافعية والزيدية وقسم من الحنفية، فقد ذهبوا الى أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة، مستدلين بحديث النبيﷺ:

---

(١) رواه ابن ماجه في أبواب المساجد والجماعات (باب: التغليظ في التخلف عن الجماعة) ٢٦٠/١، حديث ٧٩٣.

(٢) رواه الترمذي في كتاب مواقيت الصلاة (باب: ما جاء فيمن سمع النداء فلا يجيب) ص٦٣، حديث ٢١٧.

(٣) المصنف للحافظ عبد الرزاق في كتاب الصلاة (باب: مَنْ سمع النداء) ٤٩٧/١، حديث ١٩١٥.

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة»[1].

وفي رواية:

« صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[2].

وجه الاستدلال بالحديثين: أن صلاة الجماعة ليست بواجبة، ولو كانت واجبة لما صحت صلاة المنفرد.

والراجح ما ذهب اليه الجمهور من أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة، ولو كانت واجبة لما عفى عنها المتخلفين عنها، ولما صحت صلاة المنفرد. أما عن حديث التحريق عن المتخلفين عن صلاة الجماعة، فقد وردت مورد الزجر ولم تكن حقيقته مراده، والمراد هو المبالغة بالوعيد والعقوبة. وأما عمّا قاله سيدنا علي بن أبي طالبﷺ: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)، فيراد به: لا صلاة كاملة تحمل الفضائل كلها.

مكان صلاة الجماعة

تجوز إقامة صلاة الجماعة في أي مكان كان إذا كان طاهراً، وذلك لحديث النبيﷺ:«..وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل»[3].

ويبدو من الحديث أن الصلاة تقام في المسجد أو الصحراء أو البيت، إلاَّ أن صلاة الجماعة في المسجد أفضل مما في غيره؛ لأنّ الصلاة في جماعة، اظهار لشعائر الله، وقد قال النبيﷺ:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص٢٢٣، حديث ٦٤٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاذان (باب: فضل صلاة الجماعة) ص٢٢٣، حديث ٦٤٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب التيمم والطهارة (باب التيمم) ص ١٥٦، حديث ٣٣٥.

«...صلوا أيها الناس في بيوتكم؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»[(١)].

الرسولﷺ وصلاة الجماعة

كان اهتمام النبيﷺ عظيما بصلاة الجماعة حتى في أصعب الأحوال، وأكثرها شدة. فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يصلي جماعة حتى في شدة المعركة. كما ذكر ذلك الإمام مسلم في صحيحه[(٢)].

ولم تقع صلاة النبي جماعة في شدة المعركة مرة واحدة، بل صلاها النبي مرات عديدة، حتى قال أبو سليمان الخطابي: (صلاة الخوف أنواع، وقد صلاها رسول اللهﷺ في أيام مختلفة وعلى أشكال متباينة)[(٣)].

وذكر ابن العربي أنّ النبيﷺ (صلى صلاة الخوف مرارا عدة بهيئات مختلفة، فقيل في مجموعها: إنها أربع وعشرون صفة، ثبت فيها ست عشرة صفة)[(٤)].

ومما يدل على اهتمام النبيﷺ بصلاة الجماعة أنّ النبيﷺ لمّا اشتد به مرض الموت، طلب من أهل بيته أن يضعوا له ماءا في المخضب (الإجانة) فاغتسل فأُغمي عليه، وهكذا ثلاث مرات يغتسل ويُغمى عليه، ثم أمر أبا بكر

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: صلاة الليل) ص ٢٤٠، حديث ٧٣١.

(٢) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: صلاة الخوف) ٥٧٤/١-٥٧٦، أحاديث ٨٣٩-٨٤٣.

(٣) معالم السنن للخطابي ٢٦٩/١، الطبعة الثانية ١٤٠١، المكتبة العلمية، بيروت.

(٤) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي ٤٩١/١، الطبعة الأولى ١٣٧٦-١٩٥٧، دار إحياء الكتب العربية –عيسى البابي الحلبي–، القاهرة.

أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام[1]. لقد فعل النبي ذلك؛ لعلّه يكتسب نشاطا فيصلي بالناس، وذلك من شدة حرصه على صلاة الجماعة. ولمّا وجد النبي من نفسه خفة (وكان يهادى بين رجلين) خرج إلى المسجد. يقول الإمام العيني:

(فيه الإشارة إلى تعظيم الصلاة بالجماعة.... وفيه تأكيد أمر الجماعة والأخذ فيها بالأشد وإن كان المرض يرخص في تركها. ويحتمل أن يكون فعل ذلك لبيان جواز الأخذ بالأمثل وإن كانت الرخصة أولى)[2].

الصحابة وصلاة الجماعة

وننظر إلى صحابة النبيﷺ، فنرى العجب العجاب من حرصهم على أداء الصلاة جماعة في المسجد: فقد كان بعضهم يقارب بين خطاه في ذهابه إلى المسجد ليكثر ثوابه. روى البخاري في الأدب المفرد (عن ثابت أنه كان مع أنس بالزاوية –فوق غرفة له– فسمع الأذان، فنزل ونزلت، فقارب في الخطا، فقال: كنت مع زيد بن ثابت، فمشى بي هذه المشية وقال: أتدري لم فعلت بك؟ فإن النبيﷺ مشى بي هذه المشية، وقال: أتدري لم مشيت بك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ليكثر عدد خطانا في طلب الصلاة)[3].

وهنالك من الصحابة من كان يتخذ طريقا آخر لينال كثرة الثواب؛ فلا

---

(١) ينظر: صحيح البخاري كتاب الأذان (باب: إنما جُعل الإمام ليؤتم به) ص٢٣١-٢٣٢، حديث ٦٨٧.

(٢) عمدة القارئ للعيني ١٩٠/٥، دار الفكر، بيروت.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (باب: من اتخذ الغرف) ص١٤٠، حديث ٤٥٨، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

يسكن قرب المسجد، بل يسكن في مكان بعيد. ولندع أُبيَّ بن كعبﷺ يروي لنا هذا الحديث فيقول:

(كان رجل لا أعلم رجلا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، قال: فقيل له -أو قلت [له]- لو اشتريت حمارا تركبه في الظلماء وفى الرمضاء. قال: ما يسرني أنّ منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يُكتَب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ:«قد جمع الله لك ذلك كلَّه»[1].

وهذا عدي بن حاتم الطائيرضي الله عنه يقول:

(ما دخل وقت صلاة إلاّ وأنا أشتاق اليها)[2].

وكانرضي الله عنه يستعد للصلاة قبل إقامتها، فكان يقول:

(ما أُقيمت الصلاة منذ أسلمت إلاَّ وأنا على وضوء)[3].

وكان المرضى من الصحابة يتحملون التعب من أجل حضور صلاة الجماعة؛ لينالوا أجرها، مع أنهم رُخّص لهم في التخلف عنها، فقال الصحابي عبد الله بن مسعودرضي الله عنه عن حضور صلاة الجماعة:

(ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: فضل كثرة الخطا الى المساجد) ص ٢٦٨، حديث ١٥١٤، الطبعة الثانية لدار السلام.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ١٦٨/٣ تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثالثة ٢٠١٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦٤/٣، تحقيق: محمد نعيم العرقسوقي، ومأمون صاغرجي، باشراف شعيب الارنؤوط، الطبعة الحادية عشرة ١٤٢٢-٢٠٠١ مؤسسة الرسالة، بيروت.

يُؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف)[1].

ويعلق الإمام النووي على ما قاله ابن مسعود فيقول:

(وفي هذا كله تأكيد أمر الجماعة، وتحمّل المشقة في حضورها، وأنه إذا أمكن المريض ونحوه التوصل إليها استحبّ له حضوره)[2].

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يدعو إلى المحافظة على صلاتي العشاء والفجر في جماعة، فلنقرأ ما فعل وما تحدّث به وهو مريض في مرضه الذي تُوفي فيه: فقد طلب منهم أن يحملوه إلى المسجد لأداء الصلاة فيه فقال: (ألا احملوني؛ فحملوه، فأخرجوه، فقال: اسمعوا وبلّغوا مَنْ خلفكم: حافظوا على هاتين الصلاتين: العشاء والصبح، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على مرافقكم وركبكم)[3].

وهذا أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي أصابه من المرض ما أصابه فكان يُحمل على ظهر رجل إذا نودي للصلاة، فيذهب به إلى المسجد. فقيل له: (لو خففت على نفسك؟! قال: إذا سمعتم [حي على الصلاة] ولم تروني في الصف، فاطلبوني في المقبرة)[4].

وهذا الربيع بن خيثم كان مريضا، فيُهادى بين رجلين حين يخرج إلى

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى) ص٢٦٤، حديث ١٤٨٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٧/٥.

(٣) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات (في التخلف في العشاء والفجر وفضل حضورهما) ٢٩٣/١، حديث ٣٣٥٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٤٦/١٦.

الصلاة، فقيل له: (يا أبا زيد، إنك إن شاء الله في عذر؛ فقال: أجل، ولكني أسمع المؤذن: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، فمن سمعها فلْيأتها ولو حبوا ولو زحفا)[1].

وهذا أبو عبد الرحمن السلمي كان يُحمل -وهو مريض إلى المسجد- حتى في اليوم المطير؛ فيأمرهم أن يحملوه في الطين والمطر إلى المسجد وهو مريض، مع أنّ لديه رخصتين للتخلف عن المسجد وهما: المرض والمطر[2].

لقد حرص السلف على صلاة الجماعة حتى مع العذر؛ لعلمهم أنها من أفضل القربات والعبادات إن لم تكن أفضلها، وقد نصّ على ذلك سعيد ابن المسيّب فقال: (من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة، فقد ملأ البر والبحر عبادة)[3].

وقد يعجب المرء حين يقرأ أنّ من السلف من كان يبكي إذا فاتته تكبيرة الإحرام مع الجماعة، ومنهم من كان يمرض إذا لم يُدرك تكبيرة الإحرام في جماعة، (وكان السلف إذا فاتتهم [تكبيرة الإحرام] عزّوا أنفسهم ثلاثة أيام، وإذا

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة في كتاب الصلوات (من كان يشهد الصلاة وهو مريض لا يدعها) ٣٠٨/١، حديث ٣٥١٩.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٧٢/٦.

(٣) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله، تأليف: سيد حسين العفاني، ٣٤١/١، الطبعة الثانية عشرة ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار العفاني، القاهرة.

فاتتهم الجماعة عزّوا أنفسهم سبعة أيام)[1].

وحين تأخّر أبو الليث الطرسوسي يوما عن صلاة الجماعة، صار الناس يعزونه، وقد سأل من سأل عن أبي الليث لماذا يعزيه الناس (ما شأنه؟ قالوا: فاتته الصلاة في جماعة)[2].

وكان أبو عبد الرحمن حاتم الأصم يعتب على من لا يعزّي من فاتته الصلاة في جماعة، ويُعزّى إذا مات له ولد فقال:

(فاتتني الصلاة في الجماعة، فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأنّ مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا)[3].

إن الناس المنصفين يقفون موقفاً تهتزّ له النفوس، وتخشع له القلوب، وهو يرى المتقين من عباد الله في صلاة الجماعة، وقد بدت على وجوههم أمارات الخشوع لله رب العالمين. ولو تأمل هؤلاء في حياة المتقين، لعلموا أن سعادتهم المثلى في وقوفهم بين يدي الله في صلاة الجماعة. فهذا ابن المنكدر يقول:

(ما بقي من لذات الدنيا الا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ٣٣/٢، ضبطها وصححها: خالد عبد الغني محفوظ، الطبعة الأولى ١٤٢٦-٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) تاريخ واسط، تأليف: أسلم بن سهل الرزار الواسطي، ١٧٥/١، تحقيق: كوركيس عواد، الطبعة الأولى ١٤٠٦، عالم الكتب، بيروت.

(٣) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ١٤٩/١، دار المعرفة، بيروت.

الجماعة)[1].

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإنّ سعيد بن المسيّب رضي الله عنه قال: (ما أذّن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد)[2].

قال -أيضا-:

(ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة)[3].

وقال أبو الأشعث ربيعة بن يزيد:

(ما أذّن المؤذن لصلاة الصبح منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضا، أو مسافرا)[4].

وكان من الصحابة من يحضُّ ولده على ملازمة المسجد للصلاة فيه جماعة؛ فقد أوصى أبو الدرداء ولده قائلا:

(يا بني، ليكن المسجد بيتك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المساجد بيوت المتقين، فمن كانت المساجد بيوته، ضمن الله له بالروح

---

(١) تزكية النفوس وتربيتها كما يقررها علماء السلف: ابن رجب الحنبلي وأبو حامد الغزالي وابن قيم الجوزية، رتبه وعلّق عليه الشيخ أحمد محمد كنعان ص ٥٦، دار القلم، بيروت.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات (من كان يشهد الصلاة وهو مريض لا يدعها) ٣٠٨/١، حديث ٣٥٢٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢١/٤.

(٤) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، ٨٤/١، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الأولى ١٩٥١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

والرحمة والجواز على الصراط إلى الجنة»)[1].

وروى مجاهد قال: سمعت رجلا من أصحاب النبيﷺ قال: لا أعلمه إلا ممن شهد بدرا، قال لابنه: أدركت الصلاة معنا؟ قال: نعم. قال: أدركت التكبيرة الاولى؟ قال: لا. قال: لما فاتك منها خير من مائة ناقة كلها سود العين.)[2].

وكان من سلفنا الصالح من يؤدب ولده إذا تأخّر عن صلاة الجماعة بشتى أنواع التأديب، فروى الحافظ الذهبي (أنّ عبد العزيز بن مروان بعث ابنه عمر إلى المدينة يتأدب بها، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده، وكان يلزمه الصلوات، فأبطأ يوما عن الصلاة، فقال: ما حبسك؟ قال: كانت مُرَجِّلتي تُسكّن شعري، فقال: بلغ من تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟! وكتب بذلك إلى والده؛ فبعث عبد العزيز رسولا إليه، فما كلَّمه حتى حلق شعره)[3].

---

(١) الزهد للإمام هناد بن السري الكوفي التميمي، ٣٦٢/٢، رواية رقم ٩٦٥، تحقيق: محمد أبي الليث الخير آبادي، مطابع الدوحة الحديثة، قطر.

(٢) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ٥٢٨/١-٥٢٩، بتحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣-١٩٨٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١٦/٥.

ولي الأمر وصلاة الجماعة

عُني ولاة أمور المسلمين عناية كبيرة بتوجيه الناس إلى صلاة الجماعة، متبعين معهم أساليب الترغيب والترهيب. فقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يهدد المتخلفين عن صلاة الجماعة. فلمّا فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح سأل أمّه الشفاء عنه فقالت: (إنّه بات يصلي، فغلبته عيناه. فقال عمر: لأنْ أشهد صلاة الصبح فى الجماعة أحبّ إليّ من أنْ أقوم ليلة)(١).

ولما فقد ﷺ رجلا في صلاة الصبح، فأرسل إليه فجاء فقال: (أين كنت؟ فقال: كنت مريضا، ولولا أن رسولك أتاني لما خرجت. فقال عمر: فإن كنت خارجا إلى أحد فاخرج للصلاة)(٢).

ولقد جاء أمير المؤمنين عمر إلى سعيد بن يربوع في منزله فعزّاه بذهاب بصره، وقال: (لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، قال سعيد: ليس لي قائد، قال: فنحن نبعث إليك بقائد؛ فبعث إليه بغلام من السبي)(٣). وكان ﷺ يكتب إلى عماله وإلى والي الحسبة يأمرهم بالجمعة والجماعة، يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله:

---

(١) الموطأ للإمام مالك ١/١٩١-١٩٢، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الطبعة الثانية ١٤١٧-١٩٩٧، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلوات، (من قال إذا سمع المنادي فليجب) ١/٣٠٣، حديث ٣٤٦٢.

(٣) كنز العمال لعلاء الدين علي المتقي الهندي، كتاب الصلاة في قسم الأفعال، الباب الخامس في الجماعة وفضلها وأحكامها، أعذار الجماعة، ٨/٣٠٧، رقم الرواية ٢٣٠٥١، تحقيق: بكري حياني، وصفوت السقا، الطبعة الأولى ١٣٩١، مطبعة البلاغة، حلب، سوريا.

(وكان عمر بن الخطابﷺ يكتب إلى عماله: "إنّ أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها كان لما سواها أشد إضاعة". ويأمر والي الحسبة بالجمعة والجماعة وأداء الأمانة والصدق ، والنصح في الأقوال والأعمال)(١).

أمّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالبﷺ، فقد كان يمرُّ في الطريق مناديا (الصلاة الصلاة) ليوقظ الناس لصلاة الفجر كل يوم. يقول ولده الحسنﷺ عند استشهاده: (فلما خرج من الباب نادى: أيها الناس الصلاة الصلاة، كذلك كان يفعل في كل يوم يخرج ومعه درته يوقظ الناس، فاعترضه الرجلان...)(٢).

وكان عتّاب بن أسيد الأمويﷺ أميرا لمكة من قِبَل النبيﷺ، وكان متشددا في أمر صلاة الجماعة، حتى كان يهدد من تخلف عن صلاة الجماعة في المسجد بضرب عنقه، وقد خطب أهل مكة يوما فقال: (يا أهل مكة، والله لا يبلغني أنّ أحدا منكم تخلف عن الصلاة في المسجد في الجماعة إلا ضربت عنقه)(٣).

(وشكر له أصحاب رسول اللهﷺ هذا الصنيع، وزاده رفعة في أعينهم)(٤).

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تأليف: ابن قيم الجوزية، ص٢٤٠، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبع سنة ١٣٧٢-١٩٥٣، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٣٦-٣٧.

(٣) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية، ص٨١، إدارة ترجمان السنة، لاهور.

(٤) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية، ص٨١.

غير المسلمين وصلاة الجماعة

وقف كثير من المستشرقين وغيرهم من غير المسلمين موقف اعجاب من صلاة الجماعة، إذ يقف الغني بجانب الفقير، والرئيس بجانب المرؤوس، والسيد بجانب المسود، قد اقتدوا بامام واحد، واتجهوا الى قبلة واحدة. ولم يخفِ قسم من المستشرقين تأثره وإعجابه بما يراه من صلاة الجماعة. ويكفينا أن نذكر هنا أنّ الفيلسوف الفرنسي (رينان) مع ما له من شطحات عن الإسلام والعرب، فكان يقول:

(إنني لم أدخل مسجدا من مساجد المسلمين من غير أن أهتز خاشعا، وأن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلما)[١].

ويقول توماس أرنولد:

(هذا الفرض المنظّم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية، فكثيرا ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد الشرق ما لكيفية أدائه من التأثير في النفوس)[٢].

ويقول:

(لا يتأتى لأحد أن يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصلّ في وسط المسجد الجامع بمدينة [دلهي] بالهند يوم الجمعة الأخيرة من شهر الصيام، وكلهم مستغرقون في صلاتهم، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية في كل حركة من حركاتهم، نقول: إنّه لا يتأتى لأحد يكون

(١) العبادة في الإسلام، تأليف: الدكتور يوسف القرضاوي، ص٢٢٣، الطبعة الثانية ١٤٢٢-٢٠٠١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) العبادة في الإسلام، ص٢٢٣.

قد رأى ذلك المشهد إلا يبلغ تأثره به أعماق قلبه، والا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها)[١].

(١) العبادة في الإسلام، ص٢٢٣-٢٢٤.

الصلاة في الليل

الصلاة عبادة من أجلّ العبادات، بل هي أجلّها وأعظمها، وكيف لا تكون كذلك وهي عماد الدين، وأوّل ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة من حقوق الله، وهي آخر ما وصّى به النبيﷺ أمته وهو على فراش الموت، جعل يقول: «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[1]، وهي من العبادات التي يُطالب بها المسلم العاقل البالغ في حياته كلها. والصلاة التي يريدها الله منها ليست كلمات تقوم بها الجوارح من غير تأمّل وتدبر فيها، بل الصلاة المطلوبة هي التي تؤثّر بحياة المسلم ومنهجه على وفق شرع الله، وهي قوة للمسلم إذا أقامها متأملا فيها. وهكذا صار هذا اللون من ألوان الصلاة قوة روحية، يستطيع بها الوقوف أمام ما يجده من صعوبات ومنغصات في حياته أولا، وتبعث فيه الاطمئنان والرضى على ما يلاقيه في حياته من عقبات بعد ذلك؛ وقد نصّ القرآن الكريم على هذا فقال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة البقرة.

وكل من يقيم هذه الصلاة بشروطها وأركانها وسننها يشعر بالروح العالية التي تحلق به في هذا الوجود.

هذا ما يتعلق بصلاة الفريضة والسنن التابعة للفرائض، وأمّا صلاة الليل، فإنّها مدرسة الإخلاص، يتعلم فيها المسلم عمل السر، ولا يستطيع القيام بذلك إلا المخلصون لله، أولئك الذين يتركون دفء الفراش، ويصفّون أقدامهم بين

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: في حق المملوك) ص٩٣٢، حديث ٥١٥٦، وابن ماجه في كتاب الوصايا، ص٣٨٨، حديث ٢٦٩٨.

يدي الله، وعلى هذا النهج ربّى النبيﷺ صحابته —وبخاصة في الشهور الأولى لبعثته عليه الصلاة والسلام-.

ونحب هنا أن نعلم كيف كان النبيﷺ يقيم الليل متهجدا، وما أثر ذلك في صحابتهرضي الله عنهم.

منهج النبيﷺ في قيام الليل

إنّ كل من درس منهج النبيﷺ —وبخاصة في عبادته ربه— يتبين له أنّهعليه السلام كان سيد العابدين، ولا يدانيه أحد في ذلك: فكان لا يجد سعادته المثلى إلا بوقوفه بين يدي الله. لقد نزل الوحي على النبي في غار حراء، وبعد ذلك بمدة ليست بالطويلة نزلت آيات القرآن تأمره بقيام الليل إلا قليلا، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ ﴾ سورة المزمل.

ومنذ أن نزلت عليه هذه الآيات، اجتهد صلوات الله وسلامه عليه في قيام الليل (أكثره، أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه، وأقله ثلث الليل)[1].

---

(١) في ظلال القرآن، تأليف سيد قطب ٣٧٤٤/٦، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥-٢٠٠٤، دار الشروق، القاهرة-بيروت.

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ سورة المزمل/ ٢٠.

وهكذا كان النبي الكريمﷺ يقضي أوقات ليله في عبادة ملؤها الخشوع والتدبر في آلاء الله، وترتيل ما ينزل عليه من آيات القرآن. وهذا كله إعداد من الله تعالى لرسوله؛ ليتحمل أعظم رسالة في الوجود..تلك الرسالة التي سيلاقي خلالها كثيرا من العنت والمشقة والابتلاء والأذى من أجل هداية الناس، وإنقاذهم من ذلك التيه والضلال والشرك والكفر. وتوالت آيات القرآن تأمره بالتهجد، فقال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ سورة الإسراء.

وقال:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠ ﴾ سورة ق.

لقد اتخذ النبيﷺ له منهجا خاصا في قيام الليل، ولم يكن لهﷺ وقت محدد في ذلك القيام، فكان يقوم بحسب ما يتيسر له القيام، وقد قال أنس ابن مالكرضي الله عنه:

(مَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَى رَسُولَ اللَّهِﷺ فِي اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلا رَأَيْنَاهُ وَلا نَشَاءُ أَنْ نَرَاهُ نَائِمًا إِلا رَأَيْنَاهُ)[1].

وكانﷺ إذا أراد أن يقوم الليل توضأ واستاك وتطيب، ويقوم تارة إذا

---

(١) رواه النسائي في كتاب قيام الليل (باب: ذكر صلاة رسول اللهﷺ) ص٢٣٤، حديث ١٦٢٨، الطبعة الأولى ١٤٢٠-١٩٩٩، دار الشام، السعودية.

انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، وكان يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، وقد يفتتحها بركعتين طويلتين أحيانا، ويرتّل قراءته ترتيلا، ويقف على رؤوس الآي، ويتأثّر بترتيل القرآن، فيصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان يُسرُّ في القراءة تارة، ويجهر بها أخرى، وإذا رفع صوته لا يرفعه كثيرا، وإذا أسرّ فلا يسر بحيث لا يسمعه أحد، وكان يقوم الليل أحيانا بآية واحدة حتى الصباح، فقد قام ليلة بقوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ سورة المائدة، وكان أكثر صلاته قائما، وقد يصلي قاعدا...وهذا شيء من عبادتهﷺ في قيام الليل:

١-عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ « أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا »[1].

٢-عن حذيفة بن اليمانرضي الله عنه قال: (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبيﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ؛ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا [أي بسورة البقرة] فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى؛ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً: إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ »، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ »، ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...) ص١٢٣٧، حديث ٤٨٣٧، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة) ٢١٧٢/٤، حديث ٢٨٢٠.

ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى »، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ)[1].

٣- عن ابن مسعودﷺ قال: (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قُلْنَا وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتَ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَﷺ)[2].

ونجد النبيﷺ في الحديث الأوّل قد أقرّ ما ذكرته السيدة عائشة من أنّ الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكنّه أراد أن يظل متمسكا بتهجده؛ ليكون دائم الشكر لله تعالى.

ويشير الحديث الثاني إلى طول تهجد النبيﷺ؛ إذ قرأ في ركعة واحدة سورة البقرة والنساء وآل عمران، وكان يقرأ مترسلا، متأملا في الآيات التي يقرؤها، وهكذا الأمر في ركوعه وسجوده، يطيل في كل منهما نحوا من قيامه. هكذا كانت عبادتهﷺ.

وهكذا الأمر في الحديث الثالث، فإنّه يشير إلى طول صلاته عليه الصلاة والسلام في الليل، الأمر الذي جعل ابن مسعود يعاني من التعب حتى همّ أن يجلس في صلاته ويدع النبيﷺ واقفا.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل) ٥٣٦/١-٥٣٧، حديث ٧٧٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب التهجد (طول القيام في صلاة الليل) ص٣٣٠، حديث ١١٣٥، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل) ٥٣٧/١، حديث ٧٧٣.

لقد كان ابن مسعود﵁ حريصا كل الحرص على الاقتداء بالنبي الكريم في كل عمل من أعماله أو قول من أقواله، لكنّ حال النبيﷺ في القيام ليست كحال ابن مسعود، ولا قوة النبي كقوة ابن مسعود في تحمل القيام، ولم يكن ابن مسعود قد اعتاد ما اعتاده النبيﷺ من طول القيام آنذاك؛ لذلك صدر منه الهم ولم يفعل، وبعد أن روّض﵁ نفسه على هذه العبادة مارسها ولم يشعر بشيء من الضيق من طول الصلاة. فقد كان﵁ إذا هدأت العيون قام فيُسمع له دوي كدوي النحل حتى يُصبح.

آيات كريمة تُثني على من يقوم الليل

أمّا الآيات الكريمة التي نزلت على النبيﷺ وهي تُثني على الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما فكثيرة، منها ما يأتي:

قال الله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة الفرقان.

وقال:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة السجدة.

ومدح الله القانتين آناء الليل فقال:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الزمر.

وقال تعالى في المتقين:

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الذاريات.

وقال تعالى واصفا أصحاب محمدﷺ:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾سورة الفتح/٢٩.

وهكذا ظلّ رسول اللهﷺ قائما بأمر عبادة الله، وقيام الليل حتى أتاه من

ربه اليقين.

النبي الكريم يرغّب صحابته في قيام الليل

كان صلوات الله وسلامه عليه يرغّب صحابته بصلاة الليل –وهو ترغيب لكل مسلم– فقال:

«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ: شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ: صَلاَةُ اللَّيْلِ»[1].

ومن تحريض النبيﷺ على الصلاة بالليل قوله:

«سُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ! مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟! يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِى الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِى الآخِرَةِ»[2].

وقولهﷺ:

«أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»[3].

وقوله:

«إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصيام (باب: فضل صوم المحرم) ص ٤٧٨، حديث ٢٧٥٥، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(٢) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: تحريض النبيﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب) ص١٨٠، حديث ١١٢٦، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(٣) رواه الإمام أحمد ٢٠١/٣٩، حديث ٣٧٨٤، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرش.

أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»[1].

وقوله:

«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[2].

وقوله:

«عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»[3].

لقد كان النبيﷺ يعلم ما لصلاة الليل من الأجر، فكان يحض صحابته بأساليبه الكثيرة من أجل الحفاظ عليها، قال ربيعة بن كعب الأسلمي:

(كنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ»! فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِى الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»)[4].

وعن علي بن أبي طالبؓ: (أنّ رسول اللهﷺ طرقه وفاطمة بنت النبيﷺ ليلة فقال: «ألا تصليان؟»، فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه في كتاب البر والإحسان (باب: إفشاء السلام وإطعام الطعام) ٢٦٢/٢، حديث ٥٠٩ بتحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط.

(٢) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل) ص١٨٣، حديث ١١٤٥.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: من فتح له منكم باب الدعاء) ص٨٠٩، حديث ٣٥٤٩، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة (باب: فضل السجود والحث عليه) ٣٥٣/١، حديث ٤٨٩.

شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته وهو مول، يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾)[1]. فلم يقدم النبيﷺ على إيقاظ ابنته وابن عمه من نومها في وقت راحتهما وسكونهما إلا من أجل أن يحرزا فضيلة عظمى هي فضيلة صلاة الليل لما ينال صاحبها من منزلة عظيمة يوم القيامة.

وكان عليه الصلاة والسلام يريد من المسلم الذي يقوم الليل أن يداوم على ذلك ولا يتركه، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِﷺ يَا عَبْدَ اللَّهِ، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»)[2].

إنّ مكابدة الساعات الطويلة في عبادة صلاة الليل، والوقوف الدائم أكثر الليل: صلاة وركوعا وسجودا وتلاوة للقرآن ليس بالأمر اليسير؛ ذلك لأنّها تحتاج إلى مجاهدة النفس، ومخالفة الشيطان، ومقاومة الهوى، وبخاصّة في الأيام الأولى لقيام الليل، فإذا تغلّب المسلم على ذلك، وجد لذة تلك العبادة؛ فتصير سعادته الكبرى فيها. لذلك كان الحسن البصري يقول:

(لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من

---

(١) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: تحريض النبيﷺ على صلاة الليل والنوافل) ص٣٢٨، حديث ١١٢٧، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: ما رُوي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح) ٥٣٨/١، حديث ٧٧٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه) ص٣٣٣، حديث ١١٥٢، ومسلم في كتاب الصيام (باب: النهي عن صوم الدهر) ٨١٤/٢، حديث ١١٥٩.

نوره)[1].

الصحابة وقيام الليل

ولقد اقتدى الصحابة وآل بيته الأطهار بهدي النبيﷺ في عبادته: فكان منهم من عُرِف بقيام الليل وصيام النهار؛ فتسابقوا إليها، وكان منهم من يقف في صلاته كأنّه وتد أو سارية، ومنهم من تورمت قدماه من كثرة القيام، ومنهم من يسجد فيغرق مكان سجوده بالدموع؛ خوفا من الله، وطمعا في جنته، ومنهم من كان يقرأ آية من كتاب الله، ويظل ليله مرددا لها حتى يصبح، ومنهم من يقرأ القرآن في ركعة واحدة.

وسأذكر أمثلة تفصح عن أثر النبيﷺ في بناء شخصية الصحابة في قيام الليل: أولئك الذين اجتهدوا في عبادتهم لله، ففازوا بنصيب كبير من رضوان الله، حتى صارت رحمات الله تتنزل بذكرهم.

قال سعيد بن المسيّب: (كان عمر بن الخطابرضي الله عنه يحب الصلاة في جوف الليل)[2].

ولم يكن لهرضي الله عنه وقت معين ينام فيه: فكان ينعس وهو قاعد، فقيل له: يا امير المؤمنين، الا تنام؟ فقال: كيف انام: إن نمت بالنهار ضيعت امور

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص٨٣، بتحقيق: زهير الشاويش، الطبعة التاسعة ١٤٢١–٢٠٠٠، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٨٦/١، تحقيق: محمود فاخوري ود. محمد رواس قلعه جي، الطبعة الثانية ١٣٩٩–١٩٧٩، دار المعرفة، بيروت.

المسلمين، وان نمت بالليل ضيعت حظي من الله ﷻ[١] -يعني القيام-.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلاَةِ، يَقُولُ لَهُم: الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ! ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الآيَةَ: [وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى])[٢].

(وكان في وجهه خطان أسودان مثل الشراك من البكاء وكان يمر بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض)[٣].

(كان يصلي بالناس العشاء، ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلي إلى آخر الليل)[٤].

أمّا عثمان بن عفانؓ، فقد قال فيه عطاء بن أبي رباح:

(إنّ عثمان بن عفانؓ صلى بالناس، ثم قام خلف المقام، فجمع كتاب الله في ركعة كانت وتره؛ فسميت البتيراء)[٥].

وقال الحافظ الذهبي:

(وصحّ من وجوه أنّ عثمان قرأ القرآن كله في ركعة)[٦].

---

(١) صفة الصفوة ٣٨٢/٢.

(٢) رواه الإمام مالك في (ما جاء في صلاة الليل) ١٧٥/١، حديث ٣١١، بتحقيق: د. بشار عواد معروف، الطبعة الأولى ١٤١٦-١٩٩٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٣) التبصرة لابن الجوزي ٣٦١/١، بتحقيق: خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ٤١٩/٣.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧٥/٣.

(٦) تاريخ الإسلام للذهبي ٤٧٦/٣، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى ١٤٠٧-١٩٨٧، دار الكتاب العربي.

وكان رضي الله عنه (يصوم الدهر، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله)[1].

وحدّث ما شئت أن تُحدّث عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد وصف ضرار بن ضمرة سيدنا عليا بأنّه كان (يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته)[2].

ولمّا دخل الأشتر النخعي عليه رضي الله عنه وهو قائم يصلي؛ فقال له: يا أمير المؤمنين، صوم بالنهار، وسهر بالليل، وتعب فيما بين ذلك! فلمّا فرغ علي من الصلاة قال له: (سفر الآخرة طويل، فيحتاج إلى قطعه بسير الليل)[3].

وكان عبد الله بن مسعود سيدا من سادات من يقوم الليل، فقد روى علقمة بن قيس هذا الحديث فقال: (بِتُّ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ لَيْلَةً فَقَامَ أَوَّلَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَكَانَ يَقْرَأُ قِرَاءَةَ الإِمَامِ فِي مَسْجِدِ حَيِّهِ، يُرَتِّلُ، وَلا يُرَجِّعُ يُسْمِعُ مَنْ حَوْلَهُ، وَلا يَرْفَعُ صَوْتَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَلَسِ إِلا كَمَا بَيْنَ الأَذَانِ لِلْمَغْرِبِ إِلَى انْصِرَافٍ مِنْهَا، ثُمَّ أَوْتَرَ)[4].

(وكان رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل)[5].

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة ٧٣/٢، حديث ٦٦١٠، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الثانية ١٤٢٦-٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣١٥/١.

(٣) علي بن أبي طالب، تأليف: علي محمد محمد الصلابي ص٢٦٩-٢٧٠، طبعة دار ابن كثير الثانية ١٤٢٦-٢٠٠٥، دار ابن كثير، دمشق-بيروت.

(٤) رواه الطبراني في الكبير ٢٨٠/٩، حديث ٩٤٠٤، تحقيق: السلفي، الطبعة الثانية ١٤٢٢-٢٠٠٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص٢١٢، حديث ٨٥٢، ضبط نصوصه: عادل سعد محمد مطاوع، ١٤٣١-٢٠١٠، دار العقيدة، القاهرة.

وقال:

(كفى بالمرء من الشقاء –أو من الخيبة– أن يبيت وقد بال الشيطان في اذنه، فيصبح ولم يذكر الله)(١).

وقالرضي الله عنه:

(فضل صلاة الليل على صلاة النهار، كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية)(٢).

وقد وصف معاذ بن جبلرضي الله عنه صلاته في الليل فقال:

(انام أوّل الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومي كما أحتسب قومتي)(٣).

وكان معاذ يقول حين يتهجد من الليل:

(اللهم قد نامَت العُيون، وغارت النجوم، وأنت حيٌّ قيوم، اللهم طلبي للجنة بطئ، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هُدىً ترده إليّ يوم القيامة؛ إنك لا تخلف الميعاد)(٤).

ويتحدث التابعي الجليل مجاهد عن عبد الله بن الزبير فيقول: كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع(٥).

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة، ١٢٥/٧، رقم ٣٤٥٤٤.

(٢) حلية الأولياء، ١٣٠/١.

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي(باب: بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ الى اليمن قبل حجة الوداع. ص١٠٧٨، حديث ٤٣٤١ و ٤٣٤٢.

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي، ٤٩٢/١.

(٥) صفة الصفوة، ٧٦٥/١.

وقال مسلم بن يناق:

(ركع ابن الزبير يوماً ركعة، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وما رفع رأسه)[١].

وروى يوسف بن الماجشون عن الثقة بسنده قال:

(قسم ابن الزبير الدهر على ثلاث ليال: فليلة هو قائم حتى الصباح، وليلة هو راكع حتى الصباح، وليلة هو ساجد حتى الصباح)[٢].

وقالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: كان ابن الزبير قوام الليل، صوام النهار، وكان يسمى حمام المسجد[٣].

أما ابن عباس –رضي الله عنهما– فقد قال: (ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خير من قيام ليلة والقلب ساه)[٤].

وقد كان رضي الله عنه يطبّق ذلك في عبادته. فعن عبد الله بن أبي مليكة قال: (صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شطر الليل، يرتل ويكثر في ذلك التسبيح)[٥].

لقد كان ابن عباس يدرك بثاقب بصيرته مقاصد الشريعة في العبادة، وزاد من معرفته حقيقة العبادة عيشه الأول مع الرسول ﷺ، واطلاعه على عبادته، فكانت مصاحبته للنبي الكريم دروسا عملية تلقاها عنه صلوات الله وسلامه

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ١٧١/٢٨.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٦٩/٣.

(٣) حلية الاولياء، ٣٣٥/١.

(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١٥١/١، دار المعرفة، بيروت.

(٥) صفة الصفوة ٧٥٥/١.

عليه. وبعد أن انتقل النبي إلى جوار ربه، صحب عمر بن الخطاب، ورأى عبادته كيف كانت. فلا عجب إذا رأينا ابن عباس قد صار محبا لعبادة الله متهجدا في ليله.

وهكذا الأمر في أنس بن مالك خادم النبيﷺ، فقد (كان أنس يصلي فيطيل القيام، حتى تقطر قدماه دما)[1].

وهكذا الأمر مع عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقد قال النبيﷺ يوما في عبد الله بن عمر: « نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ ». فَكَانَ عبد الله بَعْد ذلك لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً[2].

(كان له مهراس فيه ماء فيصلي ما قُدّر له، ثم يصير إلى الفراش، فيغفي إغفاء الطائر، ثم يقوم فيتوضأ، ثم يصلي، ثم يرجع إلى فراشه، فيغفى إغفاء الطائر، ثم يثب فيتوضأ، ثم يصلي، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمسا)[3].

وعن نافع قال: (كان ابن عمر إذا فاتته صلاة العشاء في الجماعة أحيا بقية ليلته)[4].

وكانرضي الله عنه يقول:

---

(١) صفة الصفوة ٧١١/١.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ (باب: مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما) ص٩٤٦، حديث ٣٧٣٩، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما) ١٩٢٨/٤، حديث ٢٤٧٩.

(٣) الإصابة ٢٩٥/٦ بتحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركي ود. عبد السند حسن يمامة.

(٤) الإصابة ٣٠٠/٦.

(ما آسى على شيء من الدنيا إلا ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل..)[1].

أمّا أسيد بن حضير، فيروي قصة تلاوته القرآن في جوف الليل أبو سعيد الخدريؓ فيقول:

(إنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ. فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ –أَيْضًا–. قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ، حَتَّى مَا أَرَاهَا؛ فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ». قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ –وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ– فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: « تِلْكَ الْمَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ: مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ »)[2].

وفي مثل هذا ما رواه البراء بن عازبؓ قال:

---

(١) رهبان الليل، د. سيد بن حسين العفاني، ٣٥٣/١ نقلا عن مختصر قيام الليل ص٢٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: نزول السكينة لقراءة القرآن) ٥٤٨/١-٥٤٩، حديث ٧٩٦.

(كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ –أي بحبلين طويلين– فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ»)(١) (٢).

وهذا تميم الداري رضي الله عنه كان كثير الصلاة بالليل، وقد (قام ليلة بآية حتى أصبح وهي: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾)(٣) سورة الجاثية.

وعن المنكدر بن محمد عن أبيه (أنّ تميما الداري نام ليلة لم يقم يتهجد؛ فقام سنة لم ينم فيها؛ عقوبة للذي صنع)(٤).

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: نزول السكينة لقراءة القرآن) حديث ٧٩٥.

(٢) وقد حدث لمثل هذا لأخي الطبيب الشيخ ادريس الحاج داؤد –رحمه الله– فلقد قمنا بزيارة قرية من قرى الموصل، وفي طريق العودة، طلب منّا أستاذنا الداعية غانم حمودات أن يذكر كل واحد منّا حادثة غريبة وقعت له، فحدثنا الدكتور إدريس الحاج داؤد قائلا:

أتاني رجل بعد منتصف الليل في الشتاء، وذكر أنّ في بيته مريضا يعاني من ألم شديد، ويشق عليه البقاء إلى الصباح، وطلب منّي أن أذهب معه لأصف له العلاج. قال: فذهبت معه ووصفت له العلاج، ثم عدت إلى داري وقلت: سأصلي صلاة الليل إلى أذان الفجر، وكان مفتاح مسجد الصديق عندي افتحه كل يوم لصلاة الفجر، وأقوم برفع الأذان فيه، فقمت بصلاة الليل إلى الفجر، ثم قمت على العادة ففتحت المسجد لصلاة الفجر وصلينا فيه، ولمّا ذهبت إلى عيادتي صباحا جاءني رجل لا أعرفه وقال لي:= =أنت والله تقوم الليل! فأجبته أخشى أن تكون مخطئا! قال: لا والله، إنّ الله تعالى أكرمني فجعلني أرى قناديل من نور فوق بيت كل من يصلي صلاة الليل.

إنّها كرامة تؤيدها ما ثبت عن صحابة النبي رضي الله عنهم.

(٣) الإصابة ٢/١٠ بتحقيق: عبد الله التركي.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/٤٤٥.

وقال ابن المبارك: (ما بلغني عن أحد من أصحاب النبيﷺ من العبادة ما بلغني عن تميم الداري)[1].

وننظر إلى سبط النبيﷺ الحسن بن علي بن أبي طالب، فنراه يأخذ نصيبه من القيام أوّل الليل، وأمّا أخوه الحسين بن علي، فكان يقيم آخر الليل[2].

واتخذ أبو هريرة له منهجا خاصا في صلاة التهجد: فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثا: (يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا، ثم يوقظ هذا)[3].

وحدّث أبو هريرة عن منهجه في قيام الليل فقال: (إِنِّي لأُجَزِّئُ اللَّيْلَ ثَلاَثَةَ أَجْزَاءٍ، فَثُلُثٌ أَنَامُ، وَثُلُثٌ أَقُومُ، وَثُلُثٌ أَتَذَكَّرُ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِﷺ)[4].

وأمّا عن قيام أبي الدرداء، فيكفينا أن نذكر قوله: (لولا ثلاث ما أحببت البقاء: ساعة ظمأ الهواجر، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر)[5].

أمّا أبو ذر الغفاري، فكان يقول:

(يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق، صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا الدنيا لحر يوم النشور، وتصدقوا مخافة يوم عسير،

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص٢٧٣، حديث ١١١٥بتحقيق: عادل سعد محمد مطاوع.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص٢٣٦، حديث ٩٦٠.

(٣) الحلية لأبي نعيم ٣٨٢/١، والإصابة ٤٤٢/٧، وسير أعلام النبلاء ٦٠٩/٢.

(٤) سنن الدارمي ٧٩/١، تحقيق: سيد إبراهيم وعلي محمد علي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠-٢٠٠٠ ، دار الحديث، القاهرة.

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٢.

يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق)[١].

وكان عامر بن عبد قيس يبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل. و (لمّا احتضر عامر بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعا من الموت، ولا حرصا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام الليل)[٢].

وحدّث ما شئت أن تحدث عن قيام عباد بن بشر، وعثمان بن مظعون، وسالم مولى أبي حذيفة، وعمرو بن العاص، وسعيد بن عامر، وشداد بن أوس، وعامر بن ربيعة، والمنذر بن عمرو، وأبي ثعلبة الخشني، وسهيل بن عمرو، وعبد الله بن حنظلة وغيرهم[٣].

إنّ كل ما ذكرته هنا من صلاة التهجد وقيام الليل لعدد من الصحابة كان نماذج ليس إلا؛ لأنّ أكثر الصحابة كان دأبهم قيام الليل والناس نيام، وقد وصف أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبرضي الله عنه ما كان عليه الصحابة من كثرة القيام والصلاة فقال:

(لقد رأيت أصحاب محمدصلى الله عليه وسلم، فما أرى أحدا يشبههم: لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تُبِلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص٢٠٢، حديث ٨٠٧ تحقيق: عادل سعد محمد مطاوع، ٢٠١٠-١٤٣١، دار العقيدة، القاهرة-الاسكندرية.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/٤.

(٣) لزيادة الاطلاع ينظر: رهبان الليل، تأليف: د. سيد بن حسين العفاني، ٣٣٢/١-٣٧٥.

يوم الريح العاصف؛ خوفا من العقاب، ورجاءا للثواب)[١].

ولقد كان قيام الصحابة في الليل من أسباب إسلام هند بنت عتبة زوج أبي سفيان. ففي صبيحة فتح مكة أقبلت إلى زوجها تقول له: أريد أن أبايع محمداﷺ (...إنّي والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياما وركوعا وسجودا)[٢].

إنّه جانب ضئيل من عبادة صحابة النبيﷺ، تتمثّل فيه المحبة للصلاة في جوف الليل في صورة من أبدع صورها، ولا يستطيع أن يقوم بهذا إلا أصحاب الهمم العالية، أولئك الذين ذاقوا لذة التهجد في جوف الليل، فكانت سلوتهم وراحتهم فيه.

---

(١) نهج البلاغة ص١٧٨، شرح الإمام: محمد عبده، بتحقيق: أحمد جاد، الطبعة الأولى ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار الغد الجديد، القاهرة.

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ٣١٨/٥، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل ومسعد عبد الحميد السعدني، الطبعة الأولى ١٤٢٢-٢٠٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت، والإصابة في تمييز الصحابة ٢٦٨/١٤ تحقيق: عبد الله التركي وعبد السند حسن يمامة، الطبعة الأولى ١٤٢٩-٢٠٠٨، القاهرة، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٧٧/٧٠.

ما يعين على قيام الليل

قيام الليل ليس بالأمر اليسير إلا من يسره الله عليه ووفقه له، وهناك امور تعين على القيام بعد توفيق الله ينبغي مراعاتها منها ما يأتي:

١-عدم الاكثار من الطعام:

ان كثرة الطعام يتبعها كثرة الشرب، ولا ريب ان ذلك يؤدي الى ثقل يجده الانسان في جسده، فيغلبه النوم، فلا يقدر على قيام الليل وقد تؤدي كثرة الطعام والشراب تلذذاً الى السمن الذي ذمه النبيﷺ، فقال:

«خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا، «ثم إنّ بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن»[١].

فكأن الحديث الشريف يذم من يتخذ أسباب السمن، وهذا لا يشمل من كان جسمه له القابلية على السمن.

وقالﷺ:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لَنَفِسه»[٢].

ورأى معقل بن حبيب قوماً يأكلون كثيراً فقال: ما نرى أصحابَنا يريدون

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ١٥/٤٧-٤٨، والبخاري في كتاب أصحاب النبيﷺ(باب:فضائل أصحاب النبيﷺ)، ص٦١٢، حديث٣٦٥٠، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب:فضل الصحابة ثم الذين يلونهم)، ٤/١٩٦٤، حديث ٢٥٣٥.

(٢) رواه الامام أحمد في مسنده -واللفظ له- ٢٨/٤٢٢-٤٢٣، طبعة شعيب الارناؤوط وجماعته، والترمذي في كتاب الزهد (باب:ما جاء في كراهية كثرة الاكل) ص٥٤٢، حديث٢٣٨٠، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

يصلون الليلة.

وقال سفيان الثوري: (عليكم بقلة الأكل تملكون قيام الليل)[1].

٢-ترك المعاصي:

تبعد المعاصي الانسان عن ربه، فيقسو قلبه، وتحول تلك بينه وبين قيام الليل، يعرف ذلك تمام المعرفة المتقون، اولئك الذين زكوا انفسهم بالطاعات، وابتعدوا عن المعاصي والآثام. فقال سفيان الثوري:

(حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته)[2].

وقال الحسن البصري:

(إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وصيام النهار)[3].

وقال-أيضاً-:

(ما ترك أحد قيام الليل إلا بذنب أذنبه، تفقدوا نفوسكم كل ليلة عند الغروب، وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل) وكان كثيراً ما يقول: (إنما يثقل قيام الليل على من أثقلته الخطايا)[4].

وقال رجل لابراهيم بن أدهم: (إني لا أقدر على قيام الليل، فصف لي دواءاً؛ فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل؛ فان وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف)[5].

---

(١) كتاب تنبيه المغترين للشعراني ص٧٢ وضح حواشيه: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، طبع سنة ١٤٣١-٢٠١٠.

(٢) حلية الأولياء ١٥/٧، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص٨٣.

(٣) رهبان الليل د. سيد بن حسين العفاني ٧٧٧/١.

(٤) تنبيه المغترين للشعراني ص٧١-٧٢.

(٥) تنبيه المغترين للشعراني ص٧٢.

والخطايا التي يرتكبها الانسان قد تكون سبباً من أهم الاسباب التي تحرم الانسان قيام الليل، وقد قيل لابن مسعود: (إنا لا نستطيع قيام الليل! قال أبعدتكم ذنوبكم)[١].

وقيل للحسن البصري: (عجزنا عن قيام الليل! قال: قيدتكم خطاياكم، إنما يؤهّل الملوك للخلوة بهم من يصدق في ودادهم ومعاملتهم، فأما من كان من أهل مخالفتهم، فلا يرضونه لذلك)[٢].

٣-ترك السمر بعد العشاء[٣]:

دعا النبيﷺ صحابته الى ترك السمر بعد العشاء، ونهى عنه وذمه وعابه لأن السمر في كثير من الاحيان يؤدي الى ضياع الوقت الذي هو رأسمال الانسان، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (جدب لنا رسول اللهﷺ السمر بعد العشاء)[٤].

واستجاب الصحابة لما دعا اليه النبيﷺ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو الناس الى الذهاب الى بيوتهم بعد صلاة العشاء ويقول لهم: (قوموا؛ لعل الله يرزقكم صلاة)، بل كان يضرب الناس بدرته ويقول: (أَسَمَرٌ أولَ الليل ونوم آخره؟!). وكانت عائشة رضي الله عنها اذا سمعت أحداً من أهلها يتحدث بعد العشاء قالت: (أريحوا كُتابكم). وجاء رجل الى دار حذيفة بن اليمان

---

(١) رهبان الليل ٧٧٨/١.

(٢) رهبان الليل ٧٧٨/١-٧٧٩.

(٣) لزيادة الاطلاع ينظر: رهبان الليل ٧٨١/١-٧٨٧.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الصلاة (باب: النهي عن النوم قبل صلاة العشاء وعن الحديث بعدها) ٢٣٠/١، حديث٧٠٣، والامام أحمد في مسنده.

فخرج اليه وسأله عن حاجته؟ فقال: الحديث! فلم يدخله حذيفة، واغلق الباب دونه وقال له: (جدب لنا عمر بن الخطاب الحديث لنا بعد العتمة).

وكثيراً ما كان الاباء يدْعون ابناءهم الى النوم بعد صلاة العشاء من أجل صلاة الليل، فعن معاوية بن قرّة أن أباه كان يقول لبنيه إذا صلى العشاء: (يابنيّ ناموا؛ لعل الله يرزقكم من الليل خيراً).

ومع هذا، فقد ابيح السمر إذا كان في طلب العلم، أو كان في الحديث مع الاهل، أو في شأن مهم من شؤون المسلمين. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول اللهﷺ يسمر عند أبي بكر الليلة كذلك في أمر من أمور المسلمين وأنا معه)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رقدت في بيت ميمونة ليلة كان رسول اللهﷺ عندها لأنظر كيف صلاة رسول اللهﷺ بالليل، فتحدّث النبيﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد[٢].

٤-عدم المبالغة في حشو الفراش:

الفراش اللين يجعل الانسان مستغرقاً في النوم الطويل. لذلك اتخذ النبيﷺ له فراشاً خشناً ووسادة حشوها ليف، ليساعده ذلك على قيام الليل؛ إذ إن الفراش الوثير قد يعيقه عن ذلك، فكان ينام على حصير، فيراه من يراه من الصحابة وقد أثر الحصير في جنبه؛ فيعتصر الالم قلوب صحابته حين

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الصلاة (باب: ما جاء في الرخصة في السمر بعد العشاء) ص٤٧، حديث١٦٩، طبعة دار الفيحاء ودار السلام.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه) ٥٣٠/١، حديث ١٩٠.

يرونه على هذه الحالة وتذرف منهم الدموع شفقة عليه. ولما اقترح عليه بعض الصحابة أن يتخذ له فراشاً ليناً فأجابه:

(مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف؛ فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية؛ فانطلقت فبعثت إليّ بفراش حشوه الصوف؛ فدخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا ياعائشة؟» قالت: قلت يا رسول الله، فلانة الانصارية دخلت عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا؛ فقال: «رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»[٢].

ولقد طبق النبي ﷺ هذا على من يعول -أيضاً- ضارباً بذلك لنا أعظم مثل، فقد جهّز فاطمة يوم زواجها من عليّ، بجهاز يقربها الى الله تعالى، فروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:(جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدَم حشوها ليف الإذخر)[٣].

---

(١) سلسلة الاحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الالباني، المجلد الاول-القسم الثاني ص٨٠٠، حديث٤٣٩.

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان ١٧٣/٢، حديث١٤٦٨، وابن أبي عاصم في كتاب الزهد ١٤/١، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١ /١٠٢ وهو صحيح بشواهده.

(٣) رواه الامام أحمد ٧٣/٢، رقم٦٤٣، وصححه أحمد محمد شاكر، وشعيب الارنؤوط.

وللعلم الحديث كلمة

ولا بأس أن نستأنس بقضايا علمية اكتشفت حديثاً، وقد كان ديننا قد دعا إليها منذ إشراق شمسه على الوجود، من ذلك: تلك الفوائد الصحية لقائم الليل. وقد أورد قسماً منها الاستاذ محمد خير رمضان يوسف في كتابه (نوادر الشوارد)(١) فقال:

(قيام الليل يعطي همةً ونشاطاً، ويصرف عن المرء أوجاع الظهر وآلامه في مستقبل حياته. وقد ثبت في إحدى الدراسات الطبية أن المسنين الذين يقومون الليل في رمضان (صلاة التراويح) يتمتعون بمستوى أداء أعلى بالنسبة لفقرات ظهورهم، مقارنة بالذين لا يقومون الليل)(٢).

كما إنّ قيام الليل يُعدُّ وقاية من مرض تصلب الشرايين، الذي قد يصيب القلب والدماغ وغيرهما من الأعضاء، فيؤدي إلى الذبحة الصدرية، والجلطة القلبية والدماغية، وذلك لأنّ المستيقظ في الليل يقطع وتيرة النوم وسكونه الطويل، الذي يؤهب إلى ظهور مرض تصلّب الشرايين(٣).

---

(١) ص٦٤، الطبعة الأولى ١٤٢٠-١٩٩٩،، المكتبة التوفيقية،بيروت

(٢) دراسة عن فقرات الظهر وقيام الليل قُدمت في مؤتمر القرآن والإعجاز الطبي في القاهرة عام ١٤٠٦هـ/الدكتورة سلوى محمد رشدي.

(٣) الليل نومه وقيامه، تأليف: سمير إسماعيل الحلو ص٦٢، مكتبة دار التراث ١٤١٢هـ، المدينة المنورة.

وبعد:

فإنّ قيام الليل يُذكّر المسلم بحقيقة ضعفه وعجزه وفقره وذله أمام الله. إنه يغرس حقيقة العبودية والانكسار لله وحده، فيعيش بين الخوف والرجاء، يسأل ربه مسألة المسكين، ويبتهل إليه ابتهال الخائف الضرير، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«..يا عبادي كلكم ضال إلاّ من هديتُه، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم...»(١).

وينبغي أن لا يغرب عن بالنا أن التهجد في الليل عامل مهم من عوامل زرع الاخلاص في نفس المسلم. إنه يعينه على القيام بأعباء الحياة؛ لذلك دعا رسول اللهﷺ صحابته إليه فقال:

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم»(٢).

وبالمداومة على قيام الليل يشعر المسلم بلذة مناجاته ربه، فيأنس بالله، ويجد سعادته المثلى في تلك اللحظات، وقد قال أبو سليمان الداراني:

(أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا)(٣).

وقال ابن المنكدر:

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: تحريم الظلم) ١٩٩٤/٤، حديث٢٥٧٧.

(٢) رواه الترمذي في (باب: دعاء النبيﷺ) ،ص٨٠٦، حديث٣٥٤٩(م٢).

(٣) تزكية النفوس ص٥٦.

(ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة)[1].

وقد قال ثابت البناني:

(ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل)[2].

ويتأسف القاسم بن محمد على خصلتين كانتا في الناس ثم ذهبتا عنهم فقال:

(خصلتان كانتا في الناس ذهبتا منهم: الجود بما رزقهم الله، وقيام الليل)[3].

وينبغي أن لا يغرب عن بالنا أنّ صلاة التهجد في الليل تعين صاحبها على ما يلاقيه من تعب ونصب في هذه الحياة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾ سورة المزمل.

وليس صوابا أن يتعلل بعض من الناس بكثرة مشاغله التي تحول بينه وبين قيام الليل، فإنّ مشاغله لم تكن أكثر من مشاغل رسول اللهﷺ، ومع ذلك، فإنّه –عليه السلام– لم يترك قيام الليل في حضر ولا سفر. فإن صعب عليك –أخي المسلم– القيام، فصلِّ قبل أن تنام ولو ركعتين لتكون من الفائزين، وادع ربك أن يتقبل منك ما تقدمه من عمل.

---

(١) تزكية النفوس ص٥٦.

(٢) رهبان الليل ١/٧٩٠.

(٣) رهبان الليل ١/٧٩٠-٧٩١.

حفظ القران الكريم وتلاوته

نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة (العلق) على النبيﷺ، فسمع النبي كلاما أخذ بمجامع قلبه . ثم تتابعت الآيات والسور نزولا عليه؛ فازداد النبي تأثره بكل آية من آيات القرآن، حتى كان يسابق جبريل في تلقي القرآن قبل أن ينتهي منه لذلك جاء التوجيه الرباني:

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ سورة طه.

وكان صلوات الله وسلامه عليه حين نزول الوحي عليه يحرك لسانه ليتعجل بحفظه؛ خشية أن يفوته شيء منه؛ لذلك جاء الأمر الإلهي:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة القيامة.

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يشعر حين تلاوة القرآن بجوٍّ روحي ينقله إلى عالم آخر غير العالم الذي يعايشه. وقد ظهر تأثره بآيات القرآن أكثر ما ظهر في صلاته، فكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وحين يسمع آيات القرآن يتلوها واحد من صحابته، تمتليء روحه صلوات الله وسلامه عليه نشوة بما يسمعه من آيات، وتستمتع حواسه كلها بنشوة القرآن الروحية. يروي عبد الله بن مسعود ﷺ هذا الحديث فيقول: (قال لي رسول اللهﷺ: «إقرأ عَلَيَّ» قلت: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قال: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ من غَيْرِي» فَقَرَأْتُ عليه سُورَةَ النِّسَاءِ، حتى بَلَغْتُ ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا**

جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ ﴾، فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ)[1].

دعوة النبيﷺإلى تعلم القرآن وتعليمه

دعا رسول اللهﷺ صحابته – وهي دعوة لكل مسلم في هذا الوجود– إلى تعلم القرآن وتعليمه؛ متخذا عددا من الأساليب في ذلك ومبينا ما أعده الله لمن يعلِّم القرآن ومن يتعلمه ومن يتلوه، فقال صلوات الله وسلامه عليه:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[2].

يبين الحديث أن أفضل الناس مَن حفظ القرآن، وفهم تفسير آياته، ثمّ علّمه الناس ودعاهم إلى العمل به. وبهذا يكون قد جمع الخير له ولغيره. فلا عجب إذا علمنا أن (سفيان الثوري) رحمه الله، رجّح تعلّم القرآن وتعليمه والعمل بأحكامه على الجهاد في سبيل الله؛ لأنّ من فهم آيات القرآن، سارع إلى العمل بكل حكم من أحكامه، ومنها أحكام الجهاد في سبيل الله.

وما أعظم ثواب الله لمن قرأ آيات من كتاب الله فيكون له الأجر الجزيل على ذلك، وقد قال النبيﷺ:

«إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا) ص١١٣٨، حديث ٤٥٨٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ص ١٢٩٩ حديث ٥٠٢٧.

تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، اتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1].

وإذا كان من يقرأ القرآن وحده، له من الأجر ما بينه النبيﷺ لنا، فإن الإجتماع على تلاوته في المسجد، له ما له من الفضل؛ إذ ينزل الله على التالين لكتابه سكينة، وتعمهم رحمتهﷻ ويثني عليهم تبارك وتعالى في الملأ الأعلى، وذلك تبيانا لعلوِ درجتهم، فقال النبيﷺ:

«... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

ويضرب لنا النبيﷺ هذه الأمثلة الرائعة التي فيها التشبيه والتمثيل لمن يقرأ القرآن ومن لا يقرؤه من المؤمنين والمنافقين –وهي غنية عن أي شرح كان– فيقول:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلِ التَّمْرَةِ لا رِيحَ لها وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ

---

(١) رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن ١/٧٤١-٧٤٢ حديث ٢٠٤٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: فضل الإجتماع على تلاوة القرآن) ٤/٢٠٧٤ حديث٢٦٩٩.

الْمُنَافِقِ الذي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ليس لها رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[١].

وينص النبيﷺ على المكانة العالية التي يتبوأها الحافظ لكتاب الله باتقان ذاكراً أن منزلته مع رسل الله أو كتبة الله البررة، وأما من يحرص على تلاوة القرآن تلاوة صحيحة، لكنه لا يقدر على ذلك، فيتردد في تلاوته لضعف حفظه فله أجران: أولهما: أجره بالتلاوة، وثانيهما: بمشقته في التلاوة فيقول:

«الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[٢].

والقرآن شافع مقبول الشفاعة يوم القيامة، ويجادل عن صاحبه فيطلب من الله أن يغفر سيئاته ويتجاوز عن ذنوبه فيقول النبيﷺ:

«القرآن مشفَّع، وماحلٌ مصدّق، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»[٣].

ويقول:

«إقرءوا القران فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه»[٤].

ويقول:

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: قراءة الفاجر والمنافق) ص ١٨٢٢، حديث ٧٥٦٠، ومسلم –واللفظ له– في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضيلة حافظ القرآن) ٥٤٩/١، حديث ٧٩٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: فضل الماهر بالقرآن) ٥٥٠/١، حديث ٧٩٨.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (في ذكر البيان بأن القرآن مَن جعله إمامه بالعمل قاده إلى الجنة...) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٦٧/١، حديث ١٢٤.

(٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين (باب: فضل قراءة القرآن) ٥٥٣/١، حديث ٨٠٤ .

«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني، قال: فيُشَفَّعان»[1].

ولما كانت الجنة ليست في درجة واحدة بل هي في درجات، فإن صاحب القرآن يرتقي في درجات الجنة بقدر قراءته لآيات القرآن. يقول النبيﷺ :

«يقال –يعني لصاحب القرآن– إقرأ وأرتقِ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»[2].

قال الخطابي: (جاء في الأثر: أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة، فيقال للقارىء: ارق في الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة)[3].

ولا يقتصر أجر تلاوة القرآن على من يتلوه، بل يتعداه إلى والديه، فيقول النبيﷺ:

«من قرأ القرآن وتعلمه وعمل به ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل ضوء الشمس ويكسى والداه حلتين لا تقوم بهما الدنيا فيقولان بما كسينا

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده باسناد صحيح ١٨٨/٦، حديث ٦٦٢٦

(٢) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن (باب:١٨) ص٦٥١، حديث ٢٩١٤.

(٣) الترغيب والترهيب للمنذري ٣٥٠/٢-٣٥١، ضبط أحاديثه وعلق عليه مصطفى محمد عمارة، الطبعة الثالثة ١٣٨٨-١٩٦٨، دار إحياء التراث العربي بيروت.

فيقال بأخذ ولدكما القرآن»[1].

هذا هو ثواب الوالد الذي حفّظ ولده القرآن، وهذه هي منزلته يوم القيامة، فما ظنكم بمنزلة من حفظ القرآن وعمل به؟.

ومن فضل تلاوة القرآن: أن الملائكة تنزل إلى من يتلوه إذا كان التالي له من ذوي الصلاح والصوت الحسن ، وهذا ما وقع للصحابي الجليل أسيد بن حضير رضي الله عنه، (فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه أَنَّ أُسَيْدَ بن حُضَيْرٍ، بَيْنَمَا هو لَيْلَةً يَقْرَأُ في مِرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ. فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أخرى فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا- قال أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يحيى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فيها أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ في الْجَوِّ حتى ما أَرَاهَا؛ قال فَغَدَوْتُ على رسول اللَّهِ ﷺ فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أنا الْبَارِحَةَ من جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ في مِرْبَدِي؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسِي؛ فقال: رسول اللَّهِ ﷺ اقرأ إبن حُضَيْرٍ، قال: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا- فقال رسول اللَّهِ ﷺ: اقرأ إبن حُضَيْرٍ، قال: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ -أَيْضًا- فقال رسول اللَّهِ ﷺ: اقرأ إبن حُضَيْرٍ قال: فَانصَرَفْتُ -وكان يحيى قَرِيبًا منها خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فيها أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ في الْجَوِّ حتى ما أَرَاهَا؛ فقال رسول اللَّهِ ﷺ «تِلْكَ الْمَلائِكَةُ كانت تَسْتَمِعُ لك وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا الناس: ما تَسْتَتِرُ منهم»)[2].

---

(١) رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن ٧٥٧/١، حديث ٢٠٨٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: نزول السكينة لقراءة القرآن) ٥٤٨/١-٥٤٩، حديث ٧٩٦.

عناية الصحابة بحفظ وتلاوة القرآن

عني الصحابة أيما عناية بما كان ينزل على النبيﷺ من سور وآيات، فقد علموا ما ورد في القرآن من مدح لمن يتلون كتاب الله مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة فاطر.

وسمعوا –أيضا– النبيﷺ وهو يحضهم على حفظه وتلاوته، لذلك أحلوا كتاب الله من حياتهم المحل الأرفع: فكانوا يتنافسون في حفظه، ويتسابقون إلى فهمه، ويتفاضلون بمقدار ما يحفظ الواحد منهم، وكانوا رهبان الليل يقومون به تهجدا وتلاوة في الأسحار، قال عبادة بن الصامترضي الله عنه (كان الرجل إذا هاجر دفعه النبيﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول اللهﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا)[1].

وتلقى الصحابة القرآن عن النبيﷺ يقرؤونه حرفا حرفا فكان منهم من حفظه كله، ومنهم من حفظ بعضه في زمن النبيﷺ.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن تأليف: محمد عبد العظيم الزرقاني ٢٤١/١، دار الفكر.

حفاظ القرآن من الصحابة

روى عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خُذُوا الْقُرْآنَ من أَرْبَعَةٍ: من عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ –فَبَدَأَ بِهِ– وَسَالِمٍ مولى أبي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بن جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بن كَعْبٍ)[١].

وفي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ اثنين من المهاجرين الأولين وهما عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، واثنين من الأنصار هما: معاذ بن جبل وأبيّ بن كعب.

أما عبد الله بن مسعود، فهو من الصحابة الأُول ممن آمن بالنبي ﷺ وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وشهد غزوات النبي ﷺ كلها، وكان ممن حفظ القرآن على عهد النبي ﷺ، وكان ﵁ يفتخر –وحق له ذلك– فيقول:

(والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم)[٢].

وأما سالم مولى أبي حذيفة، فهو سالم بن معقل، كان رقيقا ثم أُعتق، وكان إماماً للمهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم في مسجد قباء، وكان أقرأهم، وقد تعاهد مع أبي حذيفة على الشهادة، وكان سالم يصيح: بئس حامل القرآن أنا لو هوجم المسلمون من قبلي، وقد حمل الراية بعد أن استشهد زيد بن الخطاب، في حروب الردة، وقد بُترت يمناه، فحمل الراية بيسراه وهو

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (باب: مناقب أُبيّ بن كعب) ص٩٥٩ حديث ٣٨٠٨

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: القرآء من أصحاب النبي ﷺ) ص١٢٩٤، حديث ٥٠٠٠.

يتلو قول الله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ سورة آل عمران. وقد استشهد في المعارك مع المرتدين.

وأما معاذ بن جبل، فهو صحابي جليل من الأنصار، شهد العقبة الثانية وكان عمره ثماني عشرة سنة، وقد آخى النبيﷺ بينه وبين عبد الله ابن مسعود، وشهد المشاهد كلها مع رسول اللهﷺ، وهو من أفقه الصحابة وأعلمهم بالحلال والحرام، وأرسله النبيﷺإلى اليمن قاضيا ومعلما، وظل فيها إلى أن توفي النبيﷺ، وعاد إلى المدينة في خلافة الصديق، وفي خلافة عمر بن الخطاب ذهب في جيش أبي عبيدة عامر بن الجراحرضي الله عنه وقد استخلف ابن الجراح معاذاً لمّا أصيب في طاعون عمواس، وأقره عمر بن الخطاب على ذلك.

وأما أُبيّ بن كعب فهو أقرأ الأئمة. قرأ القرآن على النبيﷺ، وأخذ عنه القراءة: عبد الله بن عباس وأبو هريرة، وعبد الله بن السائب، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي وقد شهد بدرا والمشاهد كلها. وقال عمر بن الخطاب يوم مات أُبيّ اليوم مات سيد المسلمين. وليس هؤلاء الصحابة الأربعة هم من حفظ القرآن الكريم وحدهم في حياة النبيﷺ، فهناك جمع غفير ممن حفظه منهم، ويكفينا أن نعلم أن من قتل من الصحابة ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة: قُتل ببئر معونة في عهد رسول اللهﷺ سبعون، وقتل يوم اليمامة في حرب المرتدين سبعون، ومن هؤلاء الحفظة عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، وأبو

موسى الأشعري، وأبو الدرداء عويمر بن زيد، وهؤلاء كلهم أخذوا القراءة عن رسول اللهﷺ. أما الذين عرضوا القرآن على قسم من المذكورين قبلهم فمنهم:

أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن السائب، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن المغيرة، وغيرهم.

ولقد كثر قراء القرآن وحفاظه كثرة هائلة، وما ورد عن مسلم بن مشكم خير دليل على ذلك فقد قال:

(قال لي أبو الدرداء: أعدد من يقرأ عندي القرآن، فعددتهم ألفا وستمائة ونيفا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ. وكان أبو الدرداء يكون عليهم قائما، وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء رضي الله عنه)[١].

تلاوة القرآن

يحسن بالمسلم أن يجعل له وردا خاصا من القرآن الكريم، قليلا كان أو كثيراً، كأن يقرأ في اليوم جزءا أو نصف جزء أو أقل من ذلك أو أكثر، والمهم أن يستقيم لقاؤه مع كتاب الله؛ إذ التلاوة اليومية -ولو كانت قليلة- أفضل من تلاوة كثيرة يتلوها انقطاع لأيام عدة، وقد قال النبيﷺ «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلْ»[٢].

ويفضل أن تكون التلاوة بطريق الختمة من بداية القرآن إلى نهايته، فإذا انتهى من تلاوة سورة الناس افتتح بسورة البقرة فيقرأ خمس آيات منها إلى

---

(١) حملة القرآن من الصحابة الكرام تأليف: أ.د سيد محمد ساداتي الشنقيطي ص٣٨ الطبعة الأولى ١٤٢٨-٢٠٠٧، دار الحضارة، الرياض.

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره) ٥٤١/١، حديث ٧٨٣.

قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ سورة البقرة.

ومن الضروري أن يراعي التالي لكتاب الله أحكام التجويد، وأن يكون قلبه حاضرا عند تلاوته، وأن يستشعر عظمة من يتلو كلامه، وهو مأجور على تلاوته ولو لم يفهم معاني الآيات التي يتلوها، ولا ريب أنّ فهمها والعمل بها أكثر ثوابا وآجراً.

ويستحب لمن يتلو القرآن أن يسأل الله الرحمة إذا مر بآية رحمة كأن يقول: (اللهم إني اسألك العافية)، ويستعيذ بالله من العذاب أو النار أو الشر أو المكروه إذا مرّ بآية تذكر ذلك، فقد روى حذيفة بن اليمانﷺ قال: (صليت مع النبيﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى... وفيه قال: يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ..)[١].

وروى عوف بن مالك قال: (قمت مع رسول اللهﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف وتعوذ...)[٢].

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: صلاة الليل وعدد ركعات النبيﷺ ٥٣٦،٥٣٧/١، حديث ٧٧٢.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده) ص١٥٤، حديث ٨٧٣.

العمل بأحكام وأخلاق القرآن

أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليعمل المسلمون بكل حكم من أحكامه وكل خلق من أخلاقه، ومدح العاملين بذلك وذمّ الذين يقرؤون كتاب الله ولا يعملون به.

وحين نقرأ ما أثر عن السلف الصالح في هذا المجال، نرى العجب العجاب من تأكيدهم على أهمية العمل بأحكام وأخلاق القرآن. قال أبو عبد الرحمن السلمي –رحمه الله–:

(حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبيﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل؛ فتعلمنا القرآن والعمل جميعا)[1].

وقال:

(كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[2].

وقال أيضا:

(ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا، حكيما حليما، عليما سكيتا، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون

---

(١) تفسير الطبري ١/٨٠، بتحقيق وتعليق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، دار ابن الجوزي القاهرة.

(٢) تفسير الطبري ١/٨٠.

جافيا ولا غافلا، ولا صخابا، ولا صياحا ولا حديداً)[1].

وقال القرطبي (... وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن ان يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا)[2].

وقال الآجري:

(المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذّره مولاه حذِره، وما خوفه به من عقابه خافه، وما رغب فيه مولاه رغب فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدا وشفيعا وأنيسا وحرزا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة)[3].

وقال سيد قطب –رحمه الله– متحدثا عن منهج الصحابة في تلقي القرآن:

(إنهم في –الجيل الأول– لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٣٠/١، الطبعة الأولى ١٤٠٩–١٩٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) تفسير القرطبي ٣٩/١ حققه وخرج أحاديثه. د عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٣) أخلاق حملة القرآن للآجري ص ٣٩–٤٠ بتحقيق فواز أحمد زمرلي الطبعة الأولى ١٤٠٧، دار الكتاب العربي بيروت.

والإطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع. لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة، لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعة، كما يتلقى الجندي في الميدان (الأمر اليومي) ليعمل به فور تلقيه! ومن ثم لم يكن احدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة؛ لأنه كان يحسّ أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات، حتى يحفظها ويعمل بها، كما جاء في حديث ابن مسعودﷺ)[1].

---

(١) معالم في الطريق تأليف: سيد قطب ص٣٣، اعتنى به وقدم له وعلق عليه: الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى ١٤٣٠-٢٠٠٩، دار عمار الأردن عمان.

قضية نسيان سور وآيات من القرآن

من الضروري أن يحافظ المسلم على ما حفظه من كتاب الله، وألا يُفرّط فيه، وذلك بدوام ما حفظ؛ خشية النسيان؛ إذ القرآن الكريم أشد تفلتا من الإبل في عقلها، لذلك دعا النبيﷺ إلى تعهد القرآن بكثرة التكرار والمراجعة خشية نسيان شيء منه فقالﷺ:

«تعاهدوا هذا القران، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها»[١].

ولا حجة لمن يتعلل بنسيان سور أو آيات من القرآن، إذ إن النسيان أتى من تفريط صاحبه بعدم المداومة على استذكاره، وقد ذمّ النبيﷺ من يتعلل بالنسيان فقال:

«بئسما لأحدكم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي، استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصِّياً من صدور الرجال من النعم بعقلها»[٢].

وقد حذر العلماء من نسيان شيء من القرآن تحذيرا شديدا، حتى صرح الإمام النووي بأن ذلك يعدّ كبيرة من الكبائر، ودليلهم حديث النبيﷺ:

«.. وعُرضت عليّ ذنوب أمتي، فلم أجد ذنبا أعظم من سورة من القرآن

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضائل القرآن وما يتعلق به) ١/٥٤٥، حديث ٧٩١.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: استذكار القران وتعاهده) ص ١٣٠١ حديث ٥٠٣٢ ومسلم –واللفظ له– في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضائل القرآن وما يتعلق به) ١/٥٤٤، حديث ٧٩٠.

أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»[1].

وأخيرا: فإني على يقين بأن المسلمين اليوم لو اتجهوا نحو حفظ كتاب الله والعمل به، لتغير منهاج حياتهم، ولَشعروا بالطمأنينة والسعادة الحقيقية التي يطمح لها الطامحون، ويسعى لها الساعون، ولتغيرت أوضاعهم كما تغيرت أوضاع الأمة العربية بعد بعثة النبيﷺ.

□

(١) رواه أبو داؤد في مسنده في كتاب الصلاة (باب: في كنس المسجد) ص ٨٦، حديث ٤٦١، وربما اريد بالنسيان عدم العمل بالقران؛ لأن النسيان هو الترك كما قال تعالى﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ سورة الأنعام/٤٤. أي تركوا ما أُمروا بالعمل به، وقد ذهب إلى هذا سفيان بن عيينة.

الدعـــاء

الدعاء في اللغة: مصدر دعوت الله أدعوه دعاءاً، ومعناه: ابتهلت إلى الله بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير.

الدعاء في الاصطلاح: هو التضرع إلى الله، والافتقار إليه بطلب تحقيق المطلوب أو دفع مكروه بصيغ السؤال والخبر.

قال الخطابي: (حقيقة الدعاء استدعاء العبد من ربه العناية، واستمداده إياه المعونة. وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والبراءة من الحول والقوة التي له، وهي سمة العبودية، وإظهار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله، وإضافة الجود والكرم إليه)[1].

الدعاء في القرآن والسنة

لا نستطيع أن نجد ديناً من الاديان عُني بالدعاء كما عُني به الاسلام، فقد جعله عبادة من أجل العبادات، وسلاحاً للمؤمن، وعدته على الاعداء، وبه يستنزل النصر من السماء، وبه تستجلب النعم، وتدفع النقم، ويمثل حقيقة العبودية؛ إذ يتبرأ المسلم من حوله وقوته الى حول الله وقوته، وهو دليل من أدلة صدق الإيمان. وأكثر حالات الذل والافتقار في الدعاء: حين يتجه المسلم بدعائه الى الله، متوسلاً إليه أن يرضى عنه ويتقبل أعماله الصالحة بقبول حسن، ويقضي حاجته وييسر أمره لما فيه خيره. وحين يشعر المؤمن بذله وافتقاره الى الله وعجزه، يستجيب الله له، فيأتيه المدد الالهي، ويلهمه الله الهداية والسداد.

---

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، تأليف: محمد بن محمد الزبيدي، ٥/٢٧-٢٨، دار الفكر.

الدعاء في القرآن الكريم

ولقد رغبنا الله تعالى بالدعاء منه وحده، ووعدنا بالإجابة، وأمرنا أن ندعوه في الصلاة وفي غير الصلاة، ووردت نصوص القرآن في تبيان فضله، فمن تلك النصوص قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ سورة غافر.

ففي هذه الآية أمر الله عباده بالدعاء منه وحده، ووعدهم بالإجابة، وحذّرهم من تركه استغناءاً عنه أو استصغاراً له، فان من يستغني عن دعاء الله يدخل في هذا الوعيد الشديد؛ إذ يدخله سبحانه جهنم صاغراً مهيناً. يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي وفقه الله:

(فوضعت الآية الكريمة لفظة (عبادتي) مكان لفظة (دعائي)؛ ذلك لأن روح العبادة ومخها: هو الشعور بالافتقار إلى الله تعالى والابتهال إليه، وهذا يتجسد في الدعاء والضراعة الى الله سبحانه)[1].

ولقد بيَّن الله تعالى أنه قريب من عباده، يجيب دعاء من دعاه، فليدعوه وليسألوه، فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ سورة البقرة.

وهذه الآية صريحة في قرب الله من عباده، فهو يستجيب للداعين، ويحقق

---

(١) ابتهالات ودعوات للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ص٩، الطبعة الاولى١٤٢٢-٢٠٠١، مكتبة وهبة، القاهرة.

لهم ما فيه خيرهم من غير وساطة بين العبد والرب. وهناك دقيقة من الدقائق تستحب ملاحظتها، وهي أن لفظ (يسألونك) ورد في القرآن الحكيم خمس عشرة مرة، وفي كل مرة يأمر الله نبيه محمداًﷺ أن يتولى هو الرد على اسئلتهم بما يوحيه الله إليه كقول الله ﷻ في الآيات الآتية:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ سورة البقرة/١٨٩.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ سورة البقرة/٢٢٠.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾ سورة المائدة/٤.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ سورة الأعراف/١٨٧.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ سورة الإسراء/٨٥.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ سورة طه/١٠٥.

هكذا جاء جواب السؤال مقترناً بقل، وأما حين ورد السؤال في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾سورة البقرة/١٨٦ ، فقد تولى الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة الإجابة عن السؤال فقال: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾، ولم يخاطب نبيه بقوله: فقل إني قريب. وربما كانت الحكمة في ذلك: تبيان قرب الله من عبده إذا دعاه، فلم يحتج الى وساطة بينه وبين الداعي.

ويدعو الله ﷻ في آيات أخرى عباده الى الدعاء منه وحده، وأن يكونوا متضرعين في ذلك، طامعين في رحمته، غير متجاوزين للحدود التي حدّها الله في الدعاء، وأن يظهر العبد تضرعه وتذلّله وافتقاره في دعائه تارة، وان يكون في سر واستخفاء تارة أُخرى، فقال تعالى:

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ ﴾ سورة الأعراف.

وقال:

﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾ سورة غافر.

دعوة النبيﷺ صحابته الى الدعاء

لقد كان من منهج النبيﷺ في تبليغه شريعة الله، جلوسه الدائم مع صحابته، فكان يبيّن لهم أن أعظم أنواع العبادة يكون في الدعاء؛ لأن الله تعالى أمَرَ به أولاً، وفِعْلُ ما أمر الله به عبادة..، ولأن المؤمن في دعائه يُقبل بكليته الى الله، معرضاً عمّا سواه بعد ذلك، فقالﷺ:

«الدعاء هو العبادة»(١).

وممن علم ذلك أنس بن مالكؓ. فلما سأله سائل: يا أبا حمزة، أبلغك أن الدعاء نصف العبادة؟ فأجابه: لا، بل هو العبادة كلها.

وقالﷺ:

« ليس شيء أكرمَ على الله تعالى من الدعاء »(٢).

وروى أبو ذرؓ عن النبيﷺ قال: إنّ الله تبارك وتعالى قال:

---

(١) رواه أبو داؤد في باب الدعاء، حديث١٤٧٩، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، حديث٢٩٦٩، وابن ماجه في كتاب الدعاء، حديث٣٨٢٨.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: فضل الدعاء)، حديث٣٣٧٠، وابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: فضل الدعاء)، حديث٣٨٢٩، والحاكم في مستدركه: كتاب الدعاء والتكبير والتهليل، حديث١٨٠١.

« يا عبادي! إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم محرَّما فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلاَّ من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أنَّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقصَ ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها. فمن وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه »(١).

هذا الحديث القدسي، خطاب الهي حكيم، صاغه النبيﷺ، مصوراً علاقة الانسان بالله. وفيه النهي عن أي نوع كان من أنواع الظلم، والدعوة الى طلب الهداية من الله تعالى وحده: فهو الذي يملكها ولا يملكها غيره، فلا عجب أن يكرر المسلم في كل صلاة من صلواته طلب الهداية من الله فيقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ ، وفيه طلب الرزق من الله، فانه تعالى هو المطعم من الجوع، والكاسي من العري، والغني عن طاعة عباده، وإيمان الناس كلهم لا

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: تحريم الظلم) ٤/١٩٩٤-١٩٩٥، حديث٢٥٧٧.

يزيد في ملكه شيئاً، وكفر الناس كلهم لا ينقص من ملكه شيئاً، ولو أن الناس-كل الناس- طلبوا من الله فأعطاهم ما يريدون ما نقص مما عنده شيئاً...

ويتحدث النبيﷺ عن كرم الله الجزيل، وعطائه الواسع فيعطي السائل ما أراد، أو يصرف عنه من السوء مثلها، فيقول النبيﷺ:

«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعَجَّلَ له دعوته، وإما أن يدّخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»، قالوا: إذاً نُكثر، قال: «الله أكثر»[١].

واضح من الحديث أن الاجابة متحققة على وجه من الوجوه الثلاثة. وفرح الصحابة بهذا الحديث؛ إذ إن الدعاء اذا كان لا يُرَدُّ منه شئ، فنحن نكثر من الدعاء لعظيم فوائده. وجاء الجواب من النبي الكريم: «الله أكثر»: أي عطاياه تعالى كثيرة كثيرة، فهو-سبحانه- أكثر عطاءاً، فان كرمه لا ينفد، وخزائن رحمته لا تفنى؛ فهو تعالى أكثر ثواباً.

ويحبب النبي الكريم إلى المسلم مرة أخرى أن يدعو ربه، مبيناً أنه تعالى يستجيب لعبده، ولا يرد يديه صفراً خائبتين اذا دعاه فيقول:

«إن ربكم - تبارك وتعالى- حييٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»[٢].

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده باسناد حسن ٥٩/١٠، حديث١١٠٧٥، ورواه الترمذي بنحوه في أبواب الدعوات(باب: في إنتظار الفرج) ص٨١٢، حديث٣٥٧٣.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: الدعاء) ص٢٥٦، حديث ١٤٨٨، والترمذي في كتاب الدعوات (باب: في كرم الله تعالى) ص٨٠٨، حديث٣٥٥٦.

ويبين ﷺ أن الله تعالى يغضب على من لا يسأله فيقول:

«من لم يسأل الله يغضبْ عليه»[١].

ومن يغضب الله عليه لا يكون محبوباً عنده ولا عند الناس. وبين النبيﷺ أنّ من أضعف الناس رأياً مَنْ لم يدع الله ﷻ، وبخاصة عند الشدائد؛ وذلك لتركه ما أمَرَ الله به، فقال:

«أعجز الناس مَنْ عجز في الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»[٢].

فهم الصحابة الكرام هذا، فحرصوا على الدعاء، بعد أن أخذوا بأسبابه من حضور القلب، وإخلاص النية، وعدم الدعاء باثم أو قطيعة رحم، فقد كان عمر بن الخطابرضي الله عنه يقول:

(إني لا أحمل همّ الإجابة، وإنما أحمل همّ الدعاء، فاذا أُلهِمْتُ الدعاء، فان الإجابة معه)[٣].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: مَنْ لم يسأل الله يغضب عليه)، حديث٣٣٧٣، وابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: فضل الدعاء)، حديث ٣٨٢٧.

(٢) رواه الطبراني في الاوسط ١٦٦/٤، حديث ٥٥٩١. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١٥٠/٢.

(٣) الدعاء – آدابه للشيخ: عبد الله سراج الدين الحسيني ص١٤، مكتبة الفلاح ١٤١٦–١٩٩٥، حلب، سوريا.

منهج النبيﷺ في الدعاء

كان صلوات الله وسلامه عليه كثير الدعاء في نهاره وليله فيبدأ صباحه ومساءه بهذا الدعاء:

«اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم أسألك العفوَ والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديّ، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي»[١].

وكانﷺ يعلم صحابته أنواعاً من الدعاء، فقد علم أبا بكر الصديقرضي الله عنه أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى:

«اللهمَ عالمَ الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشرّ الشيطان وشِرْكه»[٢].

ويبدأ النبي نهاره بقوله:

«أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٣].

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٣٩٧/٤، حديث٤٧٨٥، وابن أبي شيبة ٣٥/٦-٣٦، حديث ٢٩٢٦٩.

(٢) رواه الامام أحمد في مسنده ١٨٧/١، حديث٥١، وأبو داؤد في (باب: ما يقول اذا أصبح) ص٩١٦، حديث ٥٠٦٧، والدارمي١٧٢/٢، حديث٢٦٨٩.

(٣) رواه الامام أحمد في مسنده ١٤٥/١٢، حديث ١٥٢٩٦، والنسائي في سننه الكبرى ١٥٣٤/٣، حديث ٩٧٤٥.

وكان يقول في صباحه:

«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»(١).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيﷺ خرج الى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول:

«اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً»(٢).

وكان عليه الصلاة والسلام اذا دخل المسجد، حمد الله تعالى، وسمَّى وقال: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، واذا خرج قال: «اللهم إني أسألك من فضلك»(٣).

وقد علَّمَ النبيﷺ الصحابة أن يقولوا بعد الأذان: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي

---

(١) رواه أبو داؤد في (باب: ما يقول اذا أصبح) ص٩١٧، حديث ٥٠٧٣، وابن حبان في (ذكر الشيء الذي اذا قاله المرء عند الصباح كان مؤدياً لشكر ذلك اليوم) الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢/١١١، حديث ٨٥٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: الدعاء اذا انتبه بالليل) ص١٥٦١، حديث ٦٣١٦، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه) ١/٥٢٥، حديث ٧٦٣.

(٣) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: ما يقول الرجل عند دخوله المسجد) ص٨٧، حديث٤٦٥.

وعدته»[1].

وكانﷺ إذا خرج من البيت قال:

«اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزلَّ أو أُزل، أو أظلِمَ أو أُظْلم، أو أجهل أو يجهل عليّ»[2].

وكان يقول عند تناول الطعام:

«اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار»[3].

وإذا انتهى من الطعام قال:

«الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»[4].

ويقول عند رفع المائدة:

«الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»[5].

ويقول عند الإفطار:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب: الدعاء عند النداء) ص٢١٧، حديث٦١٤.

(٢) رواه أبو داؤد في(باب: إذا خرج من بيته) ص٩٢٢، حديث٥٠٩٤، وابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته) ١٢٧٨/٢، حديث٣٨٨٤.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ ٥٢٤/٢، حديث ٢٧٠٠.

(٤) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع) ٢٠٨٥/٤، حديث ٢٧١٥.

(٥) رواه البخاري في كتاب الأطعمة (باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه) ص١٣٩٤، حديث ٥٤٥٨.

«ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»(١).

ويقول عند دخول الخلاء:

«اللهم إنّي أعوذ بك من الخُبُث والخبائث»(٢).

وعند الخروج من الخلاء يقول:

«غفرانك»(٣).

وإذا لبس ثوبا قال:

«اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»(٤).

وكان يقول في نهاية المجلس:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»(٥).

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الصيام (باب: القول عند الإفطار) ص٤١٤، حديث ٢٣٥٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوضوء (باب: ما يقول عند الخلاء) ص١١٢، حديث ١٤٢، ومسلم في كتاب الحيض (باب: ما يقول إذا أراد دخول الخلاء) ٢٨٣/١، حديث ٣٧٥.

(٣) رواه أبو داؤد في (باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء) ص١١، حديث ٣٠، والترمذي في كتاب الطهارة (باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء) ص١٣، حديث ٧ وغيرهما.

(٤) رواه أبو داؤد في كتاب اللباس (باب: ما يقول: إذا لبس ثوبا جديدا) ص٧٢٠، حديث ٤٠٢٠.

(٥) رواه الترمذي في (باب: ٨٠) ص٧٩٥، حديث ٣٥٠٢.

وكان يقول عند النوم:

«اللهم باسمك أموت وأحيا»[١].

«باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[٢].

«اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»[٣].

هذه نماذج قليلة جدا مما كان يدعو به النبيﷺ. ونتأمّل في حياته عليه الصلاة والسلام، فنرى قضية دعائه من الله وحده كانت منهاج حياته في نهاره وليله، وقد ربّى صحابته عليه؛ ذلك لأنّه غذاء روحي لا غنى للمسلم عنه.

ولقد أخذ الصحابة بتوجيهات النبيﷺ بأمر الدعاء؛ فأحلوه من أنفسهم المحل الأرفع، فكانوا يحافظون عليه في يومهم وليلهم في حالتي الرخاء والشدة، ويعلمون أبناءهم وإخوانهم وأقرباءهم وجيرانهم ومعارفهم ما تعلموه من أدعية النبيﷺ، وظهر من الصحابة من كان مجاب الدعوة، منهم: سعد بن أبي وقاص، والبراء بن مالك، والنعمان بن مقرن، وسعيد ابن زيد وغيرهم، وأخبارهم في كتب الحديث والتاريخ معروفة مشهورة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن) ص١٥٦٠، حديث ٦٣١٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها) ص١٧٩٥، حديث ٧٣٩٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء (باب: فضل من بات على الوضوء) ص١٣٥، حديث ٢٤٧.

من شروط الدعاء وآدابه[1].

للدعاء شـــروط وآداب يجب على من توجه إلى الله بدعائه أن يراعيها لتتم الإجابة، منها ما يأتي:

١- أن يكون الداعي مخلصـــاً لله وحده في دعائه، فلا يُقبل دعاء إنسان فقَدَ هذا الشرط. وقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ... ﴾ سورة البينة/٥.

والمسلم يردد في صلواته كلها قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ سورة الفاتحة.

٢- أن يكون الداعي متوضئاً؛ إقتداءاً بالنبيﷺ.

٣- أن يستقبل القبلة -إن أمكن- ففي الحديث: أن النبيﷺ لمّا أراد أن يدعو في الاستسقاء استقبل القبلة[2].

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«إنّ لكلِ شيءٍ سيداً، وإن سيد المجالس قبالة القبلة»[3].

٤- أن يبدأ بحمد الله، ثم بالصلاة على النبيﷺ، ويختم دعاءه بذلك. فإن رسول اللهﷺ قال:

---

(١) عن كتابنا الذكر والدعاء في القرآن والسنة ص٢٥-٢٩، الطبعة الأولى ١٤٢٤-٢٠٠٣، مطبعة أنوار دجلة، بغداد.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء (باب: الاستسقاء في المصلى)، أنظر البخاري مع الفتح ٢/٥١٥.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٥٩ وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

«كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ»(١).

وعن فضـــالة بن عبيدﷺ قال: ســـمع رســـول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبيﷺ؛ فقال رسول اللهﷺ:

«عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ:

«إِذَا صَـــلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَـــلِّ عَلَى النَّبِيِّﷺ، ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»(٢).

٥- أن يكون صـوت الداعي بين المخافتة والجهر: فلا يرفع صـوته عالياً، ولا يخفض صـوته بحيث لا يسـمع نفسـه. قالت عائشـة رضـي الله عنها في تفسير قوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ فِي الدُّعَاءِ(٣).

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا، ارْتَفَعَتْ أَصْـــوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِـــكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ»(٤).

٦- أن يكون متضرعاً في دعائه، خاشعاً فيه، يدعو ربه رغَباً ورَهباً.

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: الهدي في الكلام)، وابن ماجه -واللفظ له- في كتاب النكاح (باب: خطبة النكاح) رقم ١٨٩٤.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: الدعاء) ١٦٢/٢ بتعليق الدعاس، والترمذي في كتاب الدعوات (باب: جامع الدعوات) رقم ٣٤٧٨ بتحقيق أحمد محمد شاكر.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: [وأسروا قولكم أو اجهروا به ...] رقم الحديث مع الفتح ٧٥٢٦.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: التكبير عند الحرب) رقم الحديث مع الفتح ٢٩٩٢.

قال الله تعالى مادحاً أنبياءه:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ سورة الأنبياء.

٧- أن يعترف الداعي بذنبه، ويستغفر الله عنه، والنبيﷺ يقول:

«سَــيِّدُ الاسْــتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاّ أَنْت خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاّ أَنْتَ...»[(١)].

٨- أن يكون قلب الداعي حاضراً أثناء الدعاء؛ لأن اللهعَزَّوَجَلَّ قال:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ... ﴾ سورة الأعراف/٢٠٥.

وقال رسول اللهﷺ:

«ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ»[(٢)].

لذلك ينبغي أن يكون الداعي متدبراً في كلِّ كلمةٍ من كلمات دعائهِ، وإذا جهل شــيئاً فعليه أن يتعلمه، كما عليه أن لا يحرص على كثرة الدعاء بالعجلة؛ فإن قليل الدعاء مع حضــور القلب أفضــل من الدعاء الكثير مع الغفلة والجهل.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: لكل نبي دعوة مستجابة)، والترمذي في كتاب الدعوات (باب: رقم ١٥)، رقم الحديث ٣٣٩٣ بتحقيق أحمد محمد شاكر.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: ٦٦) رقم الحديث ٣٤٧٩ بتحقيق أحمد محمد شاكر، والحاكم برقم ١٧/١٨١٨ بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

٩- أن يكون مطعم الداعي ومشربه وملبسه ومسكنه وكل ما معه من حلال، فقد جاء في الحديث الشريف قولهﷺ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١** ﴾ وَقَالَ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ** ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[1].

١٠- أن يرد المظالم إلى أهلها، ويتوب إلى الله منها فإن لم يقدر على رد المظالم، فعليه أن يطلب من الناس أن يسامحوه، ويعقد العزم بينه وبين ربه أن يرد المظالم متى قدر على ذلك، ويسأله تعالى أن يعينه على ذلك.

١١- أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ فإن رسول اللهﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[2].

١٢- أن يجزم في دعائه ولا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت؛ فإن رسول اللهﷺ قال:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها) ٢/٧٠٣.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الفتن (باب: ٩ ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) رقم ٢١٦٩.

«ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ ...»[1].

وقال:

«لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ؛ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّهُ لا مُستكْرِهَ لَهُ»[2].

وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله عز وجل أجاب دعاء شرِّ الخلق إبليس لعنه الله إذ قال:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة الحجر.

١٣- أن يلحَّ في الدعاء ولا ييأس، ولا يقل: دعوت فلم يستجب لي، فقد قال رسول الله ﷺ:

«يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[3].

وفي رواية لمسلم:

«لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[4].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: ٦٦) رقم الحديث ٣٤٧٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: ليعزم المسألة) البخاري مع الفتح ١٣٩/١١.

(٣) رواه البخاري، البخاري مع الفتح ١٤٠/١١ في كتاب الدعوات (باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل).

(٤) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل ...) ٢٠٩٦/٤.

١٤- أن يدعو الله في الرخاء والشدة، فقد قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»(١).

١٥- أن لا يدعو بإثم أو قطيعة رحم. ومن أحاديث النبي ﷺ في هذا قوله:

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا»(٢).

١٦- أن يرفع يديه في الدعاء: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ»(٣).

١٧- أن يبتعد في دعائه عن تكلف السجع، إذ الداعي متضرع إلى الله، ولا يناسبه التكلف، والرسول ﷺ يقول:

«سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ»(٤).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه:

«... فانْظُرْ السَّجْعَ مِنْ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: ٩) (ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة) رقم ٣٣٨٢.

(٢) رواه الإمام أحمد والحاكم والبزار وأبو يعلى.

(٣) رواه مسلم في كتاب صلاة الاستسقاء (باب: رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء). ٦١٢/٢.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء (باب: كراهية الاعتداء في الدعاء) ١٢٧١/٢.

وَأَصْحَابَهُ لا يَفْعَلُونَ إِلاّ ذَلِكَ الاجْتِنَابَ»[1].

ونشير هنا إلى أن أفضل الدعاء ما كان مأثوراً عن النبيﷺ.

١٨- أن يبدأ الدعاء لنفسه أولاً، ثم لغيره بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ سورة الحشر/١٠.

وقال على لسان سيدنا موسىعليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ سورة الأعراف.

١٩- أن يكون الدعاء بجوامع الكلم: أي بالكلام المختصر المفيد، كما كان رسول اللهﷺ يفعل في دعائه، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنْ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ»[2].

٢٠- أن يدعو الله ثلاثاً؛ لأن النبيﷺ كان يفعل ذلك. قال ابن مسعودرضي الله عنه:

«... وَكَانَ (رسول اللهﷺ) إِذَا دَعَا، دَعَا ثَلاثاً، وَإِذَا سَأَلَ، سَأَلَ

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: ما يكره من السجع في الدعاء) البخاري مع الفتح ١٣٨/١١.

(٢) رواه الإمام أحمد ١٤٨/٦، وأبو داؤد -واللفظ له- في كتاب الصلاة (باب: الدعاء) رقم الحديث ١٤٨٢ بتحقيق الدعاس.

ثَلاثاً»[1].

أنواع إجابة الدعاء

ينقسم الدعاء على نوعين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وتنقسم الاستجابة على نوعين –أيضا–: فتكون استجابة دعاء العبادة بإعطاء الثواب والأجر، وتكون استجابة دعاء المسألة بإعطاء الداعي سؤله. وقد نصّ على ذلك ابن قيم الجوزية –رحمه الله– فقال:

(الدعاء نوعان: دعاء ثناء، ودعاء مسألة، والنبيﷺ كان يكثر في سجوده من النوعين، والدعاء الذي أَمَرَ به في السجود يتناول النوعين. والاستجابة –أيضا– نوعان: استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله، واستجابة دعاء المثني بالثواب، وبكل واحد من النوعين فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ والصحيح أنه يعم النوعين)[2].

فما أحوج المسلم في كل وقت وحين أن يتبرّأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، ويهتبل الفرص فيكثر من التضرّع إليه سبحانه بالدعاء ليمده بالمعونة، ويوفقه لما فيه خيره في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير (باب: ما لقي النبيﷺ من أذى المشركين والمنافقين) ١٤١٨/٣.

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٢٣٥/١، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٣٩٩-١٩٧٩، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

التوبة

قضت حكمة الله تعالى أن يخلق الإنسان في هذه الحياة مختارا: يُقدم على أعمال الخير وأعمال الشر بإرادته واختياره، على خلاف طبيعة الملائكة، فإنّها لا تصدر عنها أية معصية، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ سورة التحريم. وليست خلقة الإنسان كذلك؛ لأنّ الله ﷻ ركّب فيه غرائز، ووضع له تشريعا أمره بالسير على وفقه، أحلّ فيه الطيبات وحرّم الخبائث، فصارت أمامه مغريات كثيرة، وشهوات عديدة محرمة، يزينها له الشيطان. فلابد -والحالة هذه- أن تصدر منه خطايا وذنوب. فلا يستغني الإنسان عن التوبة منها ولو بلغ أعلى درجات التقوى؛ لأنّ كل بني آدم خطّاء، وقد أوجب الله على الناس -كل الناس- التوبة، حتى خيار خلق الله من البشر وآل بيت النبي الأطهار فقال تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ سورة النور.

وقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ سورة التحريم/٨.

وقد كان فتح باب التوبة الذي ذكره القرآن الكريم، وذكره النبيﷺ نعمة من أجلّ النعم؛ إذ لو لم يُفتح هذا الباب، لازداد أهل الفجور والفساد والظلم بفجورهم وفسادهم وظلمهم إذا يئسوا من توبة الله عليهم. ونجد الدعوات تتوالى من الله تعالى ومن رسوله محمدﷺ بالإسراع بالتوبة عند ارتكاب ذنب من الذنوب وعدم التسويف؛ خشية أن تتمكن المعاصي من النفس، ويصعب اقتلاعها عند ذاك. ويضرب ابن قدامة المقدسي مثالا رائعا على من يُسوّف

ولم يُسرع بالتوبة عند ارتكاب الذنب فيقول:

(.. وما مثال المسوِّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقطع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه)[1].

التوبة في القرآن الكريم

في القران الكريم آيات كثيرة دعت إلى التوبة من الذنوب مهما كانت ورغبت بها، ووعدت التائبين بمغفرتها ولو كانت كثيرة، قال الله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ سورة الزمر.

وقد ورد في سبب نزول الآية ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال:

(نزلت في أهل مكة، قالوا: يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم، وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر، وقتلنا النفس التي حرّم الله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عمر رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة، والوليد ابن الوليد، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا، ثم فُتنوا، وعُذّبوا فافتتنوا؛ وكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عُذّبوا به، فنزلت هذه الآيات. وكان عمر كاتباً، فكتبها إلى عياش بن أبي

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص٣٣٢، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة التاسعة ١٤٢١-٢٠٠٠، المكتب الإسلامي، بيروت.

ربيعة، والوليد بن الوليد، وأولئك النفر؛ فأسلموا وهاجروا)[1].

وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة النساء.

ومدح الله التائبين عن ذنوبهم والمستغفرين الله منها، ووعدهم بالمغفرة والخلود في جنات النعيم فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ سورة آل عمران.

ويشير القرآن الكريم إلى أنّ الله تعالى يتوب على الإنسان الظالم إذا تاب وأصلح، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة المائدة.

وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ سورة الأعراف.

ومن رحمة الله تعالى أنّ الإنسان مهما ارتكب من ذنوب وتاب منها توبة

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٨٩-٣٩٠.

صادقة وآمن وعمل عملا صالحا، فإنّ الله يتوب عليه، ويُبدّل سيئاته حسنات، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ سورة الفرقان.

ولقد أخذ الله تعالى على نفسه مغفرة ذنوب من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ثم اهتدى، قال تعالى:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة طه.

وآيات القرآن في قبول توبة عباده التائبين عن ذنوبهم، والمصلحين لما اقترفوه كثيرة كثيرة، تفتح الأمل الباسم أمام المذنبين؛ ليُسعِدوا أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة.

التوبة في الحديث النبوي الشريف

وردت أحاديث نبوية كثيرة، حضّ فيها النبيﷺ الناس على التوبة والاستغفار، مبينا أنّه صلوات الله وسلامه عليه كان يتوب إلى الله ويستغفره كثيرا، وأنّ كل ابن آدم خطاء، فقالﷺ:

«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١].

وقال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[٢].

ولا يُفهم من هذا الحديث أنّه دعوة لارتكاب الذنوب، بل هو تقرير لطبيعة الإنسان في ارتكابه للذنوب، ودعوة للتوبة بعد ذلك.

وإذا كان النبيﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإنّه مع هذا كان كثير الاستغفار والتوبة إلى الله وقد قال:

«وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[٣].

وقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٤].

---

(١) رواه الترمذي ص٥٦٣، حديث ٢٤٩٩، وابن ماجه ٣٢١/٥، رقم ٤٢٥١ بتحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: سقوط الذنوب بالاستغفار) ٢١٠٤/٤، حديث ٢٧٤٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: استغفار النبيﷺ في اليوم والليلة) ص١٥٥٨، حديث ٦٣٠٧.

(٤) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه) ٢٠٧٦/٤، حديث ٢٧٠٢.

ولفظ (سبعين) و (مائة) في هذين الحديثين لا يُراد بهما التحديد، بل يُراد بهما الكثرة.

وقال:

«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[1].

ولقد كان النبيﷺ يبين لصحابته عظم رحمة الله بعباده وعفوه عنهم؛ ليحضهم على المسارعة إلى التوبة، موضحا أنّ باب التوبة مفتوح لا يُغلق في ليل أو نهار، فالليل كله

فرصة للتوبة، والنهار كله فرصة للتوبة فقال:

«إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[2].

والمراد ببسط اليد: قبول التوبة.

ومن دعوة النبيﷺ الناس إلى التوبة: تبيانه أنّ باب التوبة يظل مفتوحا إلا في حالة الاحتضار، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويتردد الماء في فمه فلا يقدر على ابتلاعه، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[3].

ويضرب النبيﷺ هذا المثل لتبيان فرح الله تعالى بتوبة عبده المؤمن؛ ذلك

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه) ٢٠٧٥/٤، حديث ٢٧٠٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة) ٢١١٣/٤، حديث ٢٧٦٠.

(٣) رواه الترمذي في (باب: فضل التوبة والاستغفار) ص٨٠٣، حديث ٣٥٣٧.

لأنّ ضرب الأمثال يقرّب المعنى إلى المخاطب فيقول:

«لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِى ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

وهذا المثل الذي ضربه النبيﷺ واضح المعنى؛ لأنّ التوبة ترضي الله تعالى، وفيه صفة الفرح له سبحانه، وهي صفة تليق بجلاله، وفيه رحمة الله بعباده؛ إذ ردّ للرجل ناقته التي أيس منها، وقد ضرب لنا النبيﷺ هذا المثل؛ ليعلمنا أنّه لا يريد عذابنا فهو أشد فرحا حين يتوب إليه العبد ويستغفره من ذنبه من ذلك الإنسان البائس الذي فَقَدَ أعز ما يملك حين تفلتت منه دابته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه فأيقن بالهلاك! وكيف لا يوقن بذلك وهو يعلم أنّه سيكون فريسة للسباع الضواري في الصحراء، فإن لم يكن ذلك؛ فإنّ الجوع والعطش يؤديان إلى موته. ولكن لننظر إلى فرحة ذلك الإنسان كيف تكون حين يغفو إغفاءه فيستيقظ، فيرى دابته قد عادت إليه.!! إنّ أقلام البلغاء وفصاحة الفصحاء وبيان أهل البيان يعجزون عن وصف فرح ذلك الإنسان حين عثر على راحلته. ويأتي الحديث الشريف ليوضح أنّ الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الإنسان.

ويحذر النبيﷺ من تتابع الذنوب على قلب المؤمن من غير توبة فيقول:

---

(١) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: في الحض على التوبة والفرح بها) ٤/٢١٠٤-٢١٠٥، حديث ٢٧٤٧.

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾»[١].

ومن أساليب النبيﷺ في تحبيب التوبة إلى النفوس، ضربه الأمثلة الواقعية عن الأمم الماضية فقال:

«كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ»[٢].

إنّ هذا الحديث ينص على أنّ ذنوب الناس ولو كانت عظيمة، وجرائمهم كبيرة، وخطاياهم لا يحصيها عدّ، فإنّ هذه القصة تفتح للعصاة الذين أسرفوا على أنفسهم بارتكاب الذنوب والخطايا الأمل لهم: ففيها تبيان رحمة الله ببني

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٧٢/٨، حديث ٧٩٣٩، وإسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله) ٢١١٨/٤، حديث ٢٧٦٦.

آدم، فلا يكون عند المسلم شيء من اليأس من رحمة الله. وعقيدتنا –نحن أهل السنة والجماعة– أنّ كل ذنب يجوز أن يغفره الله تعالى إن شاء إلا الشرك؛ لأنّه تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ سورة النساء.

الذنوب كبائر وصغائر

تنقسم الذنوب على قسمين: كبائر وصغائر. والأصل في هذا التقسيم: القرآن الكريم والسنة النبوية. أمّا الدليل من القرآن، فقوله تعالى:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ سورة النساء.

وقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ ﴾ سورة النجم/٣٢.

وأمّا السنة، فحديث النبيﷺ:

«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[١].

وتُعد من الكبائر كل معصية فيها حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي الإيمان عن مرتكبها، أو ورود اللعن على فاعلها ونحو ذلك. وقد نصّ النبيﷺ على الكبائر وسماها بأسمائها في أحاديثه الكثيرة، ولا تُمحى إلا بالتوبة الصادقة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة...) ص١١٧، حديث ٥٥٢.

أمّا الصغائر، فهي اللمم، والمراد بها: صغائر الذنوب كالنظرة مثلا. وقد حذّر النبيﷺ من الوقوع بها، كما حذّر من الوقوع بالكبائر، فقال موصيا زوجه عائشة رضي الله عنها:

«يا عائشة، إياك ومحقِّرات الذنوب، فإنّ لها من الله ﷻ طالبا»[١].

وقال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»[٢].

وتكبر الصغائر بالإصرار عليها، أو استصغارها، أو المواظبة عليها، أو الفرح والتباهي بها، والتهاون بحلم الله عنه حين ستره ولم يفضحه أو يعاقبه. وإذا استعظم العبد ذنبه صغر عند الله، وإذا استصغره كبر عنده تعالى، وقد نصّ على هذا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعودرضي الله عنه فقال:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ. فَقَالَ بِهِ هَكَذَا» [٣].

وحق للمؤمن الذي يذنب ذنبا فيراه عظيما؛ لأنّه يعلم عظمة الله الذي عصاه؛ ولذلك صار ينظر إلى الذنب الصغير نظره إلى الذنب الكبير؛ ليروّض نفسه على الاستقامة وعدم الوقوع بالمعصية، وقد قال أنس بن مالكرضي الله عنه:

(إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لنَعُدُّهَا عَلَى

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ٥١٣.

(٢) رواه الإمام أحمد ٣٦٧/٦، حديث ٣٨١٨. أشرف على التحقيق: شعيب الأرناؤوط.

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: التوبة) حديث ٦٣٠٨.

عَهْدِ رسول اللهﷺ من الْمُوبِقَاتِ)[1].

وعلى هذا سار سلف الأمة. فهذا بلال بن سعد رحمه الله يقول:

(لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت)[2].

التسويف بالتوبة

من أساليب الشيطان: دعوته من يريد التوبة إلى التسويف؛ ليظل الإنسان في تيهه وضلاله عن صراط الله المستقيم، وبعده عن سبيل خالقه ﷻ. فإذا استجاب الإنسان لما يوحيه إليه الشيطان من التسويف، فإنّ الموت قد يأتيه وهو على ذلك. وهناك يندم العاصي على تفريطه في جنب الله، حين ظل يعلل نفسه بالتسويف ولم يتب، ويقول فيما يقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ سورة الزمر.

ولقد كثرت أقوال الصحابة والتابعين والحكماء في هذا، فقال أبو هريرةرضي الله عنه:

(تعودوا الخير؛ فإنّ الخير عادة، وإياكم وعادة السُّوّاف من سوفٍ أو من سَوْفَ)[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله:

(يا ابن آدم، إياك والتسويف؛ فإنّك بيومك ولست بغد..)[4].

وقال حيلان بن فروة المعروف بأبي الجلد:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: ما يُتقى من محقرات الذنوب) حديث ٦٤٩٢.

(٢) حلية الأولياء ٢٢٣/٥، الطبعة الرابعة ١٤٠٥، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا ١٣٣/٣، تحقيق وتخريج الشيخ أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى ٢٠١٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا ١٣٤/٣.

(وجدت التسويف جندا من جنود إبليس، قد أهلك خلقا من خلق الله كثيرا)[١].

وقيل لرجل من بني عبد القيس: أوصِ. قال: إحذروا سوف)[٢].

وقال أبو بكر العدوي:

(كتب رجل من الحكماء إلى أخ له: [أخي إياك وتأمير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك؛ فإنّه محل الكلال، وموئل الملال، وبه تُقطع الآمال، وبه تنقضي الآجال...فبادر ثم بادر؛ فإنّك مبادر به، وأسرعْ فإنّك مسروع بك، وكأنّ الأمر قد بغتك، فاغتبطت بالتسرع، وندمت على التفريط، ولا قوة بنا وبك إلا بالله])[٣].

الصحابة والتوبة

إنّ دعوة الله تعالى عباده المؤمنين إلى التوبة، ودعوة النبيﷺ لها أيضا، جعلت الصحابة أكثر الناس توبة من أيّ ذنب يقعون فيه، حتى لو تحملوا ما تحملوا فيه من المعاناة والآلام، بل حتى لو استوجبت توبتهم أن يموت الواحد منهم في تلك التوبة.

ونستطيع أن نرى هذه الظاهرة واضحة لدى الصحابة، فإنّ بعضا منهم قد يرتكب الذنب من غير أن يعلم به أحد، ومن غير أن تصل إليه يد القانون، لكنّه كان يُحاسب نفسه على ذلك، ويظل ضميره يؤنبه؛ لأنّه كان يعلم أنّ الله يسمع ويرى، لا تخفى عليه خافية: فلا يقرّ له قرار حتى يسارع إلى التوبة،

---

(١) حلية الأولياء ٥٥/٦.

(٢) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا ١٣٢/٣.

(٣) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا ١٣٣/٣.

وقد يُعرّض نفسه للعقوبة الشديدة وهو مطمئن النفس، مرتاح البال؛ خشية العقوبة في الدار الآخرة، وهذه أمثلة على ذلك:

١- توبة ماعز بن مالكﷺ

عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الأَسْلَمِيَّ، أَتَى رَسُولَ اللَّهِﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِﷺ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا» فَقَالُوا مَا نَعْلَمُهُ إِلاَّ وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِهِ وَلاَ بِعَقْلِهِ فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.(١).

٢- توبة الغامدية رضي الله عنها

جاءت الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدُّنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ «إِمَّا لاَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي». فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ قَالَتْ هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ. قَالَ «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ». فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ «مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحدود (باب: من اعترف على نفسه بالزنا) ١٣٢٣/٣، حديث ١٦٩٥.

الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ». ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ[١].

٣- توبة أبي لبابةرضي الله عنه

أبو لبابة صحابي جليل، اسمه رفاعة بن عبد المنذر بن زبر، وقيل بشر بن عبد المنذر، وقيل غير ذلك. شهد العقبة، وأراد الاشتراك في غزوة بدر فردّه النبيﷺ إلى المدينة ليكون خليفته عليها، وضرب له بسهمه وأجره.

وملخص قصة توبة أبي لبابة: أنّ المشركين جاءوا بأحزابهم وقضهم وقضيضهم ليغزوا المسلمين في غزوة عُرفت باسم غزوة الأحزاب، وكان النبيﷺ قد عقد عهدا مع بني قريظة ليدافعوا عن المدينة إذا داهمهم عدو، وفي أشد الساعات حرجا بعد مجيء الأحزاب نقض بنو قريظة عهدهم الذي عقدوه مع النبيﷺ، فصار المسلمون يواجهون عدوين: عدوا خارجيا متمثلا بالأحزاب، وعدوا من الداخل متمثلا في بني قريظة، وبعد أن رجعت الأحزاب، أمر النبيﷺ بالسير إلى بني قريظة وحاصر حصونهم خمسا وعشرين ليلة. قال ابن هشام:

(ثُمّ إنّهُمْ بَعَثُوا –يعني بني قريظة- إلَى رَسُولِ اللّهِﷺ: أَنْ ابْعَثْ إلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللّهِﷺ إلَيْهِمْ، فَلَمّا رَأَوْهُ قَامَ إلَيْهِ الرّجَالُ وَجَهَشَ إلَيْهِ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقّ لَهُمْ، وَقَالُوا لَهُ: أَبَا لُبَابَةَ! أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحدود (باب: من اعترف على نفسه بالزنا) ٣/١٣٢٣-١٣٢٤، حديث ١٦٩٥.

عَلَى حُكْمِ مُحَمّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ إِنّهُ الذّبْحُ-. قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَوَ اَللّهِ مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتّى عَرَفْتُ أَنّي قد خُنْتُ الله ورسولهﷺ، ثُمّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللّهِﷺ حَتّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ وَقَالَ: لا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتّى يَتُوبَ اللّهُ عَلَيّ مِمّا صَنَعْت ... فَلَمّا بَلَغَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ خَبَرُهُ وَكَانَ قَدْ اَسْتَبْطَأَهُ قَالَ: أَمَا إنّهُ لَوْ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمّا إذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَل فَمَا أَنَا بِاَلّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتّى يَتُوبَ اللّهُ عَلَيْهِ)[١].

وظلّ أبو لبابة على حاله مرتبطا بالجذع ست ليال، وكانت امرأته تأتيه في كل وقت صلاة فتحلّه ليصلي ثم يرتبط بالجذع. وهكذا حتى نزلت توبته على رسول الله وهو في بيت أمّ سلمة. ولما أراد الناس أن يطلقوه أبى إلا أن يطلقه رسول اللهﷺ. وهكذا كان.

وذكر الواحدي أنّه (شدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله تعالى عليه... ثم قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي؛ فقال رسول اللهﷺ: يجزيك الثلث أن تتصدق به)[٢].

لقد تاب أبو لبابة توبة نصوحا، فلم يلتفت إلى صورته أمام النبيﷺ كيف

---

(١) سيرة ابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني ٣/٣٢٨-٣٢٩، حققه وعلق عليه: الدكتور همام سعيد ومحمد عبد الله أبو صعيليك، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

(٢) أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص٢٣٢.

تكون، ولم يلتفت إلى صورته بين إخوته وبين الناس كيف تكون، ولم يلتفت إلى الحالة النفسية التي يعانيها أهله من ذلك، ولم يلتفت إلى المعاناة التي يعايشها وهو مربوط بعمود المسجد؛ لقد فرض هذا العقاب على نفسه ليتوب الله عليه، وكان قبول توبته أمنية من أعزّ الأماني عنده، وتحقق له ما أراد. إنّها توبة صحابي وكفى.

٤- توبة أبي مسعود البدري رضي الله عنه

اسمه عقبة بن عمرو بن ثعلبة، وقد اشتهر بكنيته، وقد شهد بيعة العقبة الثانية، واختلف كُتّاب السير في شهوده غزوة بدر، فذهب بعضهم إلى أنّه شهدها، وذهب آخرون إلى أنّه لم يشهدها. يروي لنا أبو مسعود البدري رضي الله عنه هذا الحديث فيقول:

(كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي؛ فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ». فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[١].

ويبدو أنّ هذا الغلام (العبد) قصّر فيما أراد سيده أبو مسعود؛ فصار يضربه. ورأى الرسول الرحيم ﷺ ما يفعله أبو مسعود بالغلام، فأنكر عليه فعله، وحذّره مغبة عمله؛ لأنّه تجاوز في عقوبته، وذكّره أنّ قدرة الله عليه أقوى من قدرته على غلامه.

وسرعان ما ندم أبو مسعود على ما بدر منه، فسارع إلى عتق الغلام، وجعله حرّا؛ تكفيرا لما ارتكبه بضربه الغلام.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الأيمان (باب: صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده) ٣/١٢٨١، حديث ١٦٥٩.

٥- توبة الله على الثلاثة الذين خُلّفوا[١].

دعا النبيﷺ الصحابة إلى الخروج معه في (غزوة تبوك)، وتخلّف في هذه الغزوة أكثر من ثمانين رجلا، وكان منهم ثلاثة رجال عُرفوا بقوة إيمانهم وجهادهم في سبيل الله، وهؤلاء الثلاثة هم: ١- كعب بن مالك ٢- مرارة بن الربيع ٣- هلال بن أمية، وقد أنزل الله في توبته عليهم قرآنا يُتلى آناء الليل وأطراف النهار.

أمّا كعب بن مالك، فقد شهد مع النبيﷺ بيعة العقبة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها النبيﷺ إلا هذه الغزوة (غزوة تبوك). ولمّا عاد النبيﷺ من غزوته، جاء المخلفون يعتذرون عن تخلفهم، فقبل النبيﷺ منهم علانيتهم واستغفر لهم. وجاء كعب بن مالك إلى النبي: فسأله: ما خلّفك؟ فقال: والله ما كان لي من عذر؛ فقال النبيﷺ: «أما هذا، فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». أمّا الرجلان الآخران: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فقد صدقا النبيﷺ، وقالا مثل ما قال كعب، وقد كانا ممن شهد بدرا. ونهى النبيﷺ عن الكلام مع هؤلاء الثلاثة، وظلوا هكذا خمسين يوما، حتى نزلت آية الله في التوبة عليهم، قال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ سورة التوبة.

وأراد كعب بن مالك أن ينخلع من ماله كله صدقة لله ورسوله، لكنّ النبي

---

(١) قصة تخلفهم وتوبة الله عليهم تجدونها مفصلة في صحيحي البخاري ومسلم.

الكريم قال له: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك».

لقد تاب الله على كعب بن مالك ورفيقيه؛ لأنّه –سبحانه– علم أنّ توبتهم كانت صادقة؛ فرضي الله عن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية.

٦- توبة أبي خيثمة رضي الله عنه

اسمه عبد الله بن خيثمة، وقيل مالك بن قيس، شهد غزوة أحد والمشاهد كلها مع النبي ﷺ وتخلّف عن غزوة تبوك عشرة أيام ثمّ لحقه، قال ابن عبد البر متحدثا عن غزوة تبوك وتخلف أبي خيثمة عنها في أول الأمر فقال:

(إنّ أبا خيثمة بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً، دخل على أهله فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماءاً، وهيأت له طعاماً، فلمّا نظر أبو خيثمة إلى ذلك قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام وامرأة حسناء، مقيم في ماله، ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق النبي ﷺ، فهيئا لي زاداً. ففعلتا. ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ. وقد كان عمير بن وهب الجمحي أدرك أبا خيثمة في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنّ لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلف عني، حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب في الطريق مقبل؛ فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة». فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: « أولى لك يا أبا خيثمة ». ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر؛ فدعا له

رسول الله ﷺ وقال له خيراً)[1].

إنّ النفس البشرية قد يصيبها الضعف في حالة من الحالات، فتحب حياة الدعة والراحة، وتعزف عن حياة الجد والجهاد والتعب والنصب، والشيطان شغله الشاغل صدّ المؤمنين عن المواقف الإيمانية، ولكنّ المؤمن سرعان ما ينتبه لنفسه، فيستعيذ بالله من وساوس الشيطان، منطلقا إلى ما يحبه الله ويرضاه.

وبعد:

فصحيح أنّ الصحابة كانوا بشرا مثلنا بحكم خلقتهم: يذنبون ويتوبون، ويخطئون ويستغفرون، لكن توبتهم كانت تختلف عن توبة كثير من الناس: فهم يتوبون من قريب ولا يدعون الآثام تتمكن من نفوسهم، ولا يصرون على ذنب يقع منهم ولو كان في نظرهم صغيرا صغيرا، وكانوا يحرصون على أن يبيت الواحد منهم وقد طهّر نفسه من أية معصية كانت، ولا يبررون الهفوات التي تقع منهم ولا يجادلون فيها، وإذا قُدّمت لهم نصيحة قبلوها، وشكروا لمن أسداها لهم.

ومما امتازوا به –أيضا– أنّهم كانوا يُكفّرون عن خطاياهم بالأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة ودعاء، ولا يقنطون من رحمة الله!.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٢٠٧/٤، رقم ٢٩٦٥، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثالثة ٢٠١٠، دار الكتب العلمية، بيروت. وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٤١/٥-٤٢، الطبعة الثالثة ١٤٢٩-٢٠٠٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

ذكر الموت

خلق الله ﷻ الإنسان في هذه الحياة الدنيا للاختبار والامتحان، ولم يخلقه لتكون الدنيا له دار قرار وبقاء، بل لتكون ممرا إلى العالم الآخر الذي هو عالم الخلود. والإنسان في هذه الحياة مهما طال عمره، فلابد أن يأتي عليه يوم تفارق فيه النفس الجسد في الموعد الذي حدده الله، وهذا الموعد هو في علم الله، لا يعلم به أحد غيره؛ ليكون الإنسان على أهبة الاستعداد للموت في كل لحظة.

ولا يظننّ أحد أنّ أمر الموت يسير، بل هو هول عظيم، وكرب شديد، ولا ينغّص الإنسان شيء كما يُنغّصه الموت، وقد أحسن ابن قدامة المقدسي حين قال:

(اعلم: أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول سوى الموت، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته، والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، لكدّرت عليه عيشه ولذته، وهو فى كل نَفَس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور)[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي، ص٤٨٧، بتحقيق: زهير الشاويش، الطبعة التاسعة ١٤٢١–٢٠٠٠، المكتب الإسلامي، بيروت.

الناس في ذكر الموت

والناس في ذكر الموت قسمان:

القسم الأوّل: ناس شغلتهم الدنيا، وأنستهم ذكر ربهم عليهم، فهم يغفلون أو يتغافلون عن ذكر الموت، فلا يذكرونه، وإذا ذكروه فيذكرونه بقلب غافل لاهٍ، وتنفر نفوسهم حين يُذكر أمامهم. وهذه الغفلة عن الموت، أو التغافل والإعراض عن ذكره، هي التي تؤدي إلى الخسارة العظمى في العالم الآخر.

القسم الثاني: ناس أيقنوا أنّ الدنيا زائلة، وكل ما فيها من مباهج ومغريات ليست إلا متاع الغرور؛ لذلك وضعوا الموت نصب أعينهم؛ فانطلقوا يعدّون لهذا اليوم عدته من العقيدة السليمة والعمل الصالح، وتنبعث من قلوبهم الخشية والفزع عند ذكره، وذكر ما بعده من الحياة البرزخية في القبور، ولا يخشون من شيء خشيتهم من أن يتخطفهم الموت، قبل أن يُعدوا لهذا اليوم الشديد عدته.

الموت في القرآن الكريم

كان النبع الأوّل الذي استقى منه المسلمون عقيدة الإسلام وشريعته هو القرآن الكريم. فها هي آيات القرآن قد توالى نزولها على النبي الكريم في أمر الموت، وقد جاءت في صور شتى؛ لتغرس في قلب المسلم هذه الحقيقة التي يغفل أو يتغافل عنها الإنسان، حين يغرق في متع الحياة الدنيا، منها: أنّ كل إنسان مصيره إلى الموت: فلا بقاء ولا خلود لغير الحي القيوم ﷻ. وهناك يوم القيامة الذي يجازي الله فيه كل نفس بما كسبت، وأنّ الموت يدرك كل أحد ولو تحصّن في بروج مشيّدة، قال الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ سورة آل عمران.

وقال:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة الأنبياء.

وقال:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ... ﴾سورة النساء/٧٨.

وقال:

﴿ ...وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ سورة لقمان.

وقال:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ سورة الجمعة.

وقال:

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة ق.

الموت في حديث النبيﷺ

ويقرأ النبيﷺ هذه الآيات وغيرها –وهو يعلم عن أحوال الموت أكثر مما يعلمه غيره– فيغرس ذلك في قلوب صحابته: يربيهم على الاستعداد له، ويدعوهم إلى الإكثار من ذكره، فقال صلوات الله وسلامه عليه:

«أكثروا ذكر هاذم اللذات»(١).

ومعنى هاذم اللذات: أي قاطع ومفرّق ومشتت اللذات، والمراد به: الموت. وقد ذكر النبيﷺ هذا الحديث في غزوة أُحد على الكلام في قتل وحشي لحمزة بن عبد المطلبرضي الله عنه.

وقالﷺ:

«ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفظع منه»(٢).

ويدعو صلوات الله وسلامه عليه إلى الاستعداد للموت، واصفا المُكثرين من ذكره بالأكياس –وهم العقلاء–. فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه قال:

(كنت مع رسول اللهﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبيﷺ ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا». قال: فأيُّ المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا،

---

(١) رواه الإمام أحمد ٣٦/٨، والترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في ذكر الموت) ص٥٢٢، حديث ٢٣٠٧، والنسائي في (كثرة ذكر الموت)، صحيح سنن النسائي ٦/٢، حديث ١٨٢٣، وغيرهم.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في ذكر الموت) ص٥٢٢، حديث ٢٣٠٧.

أولئك الأكياس»[١].

وقالﷺ:

«بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر، أو الساعةَ فالساعةُ أدهى وأمر»[٢].

والمراد بالموت المجهز: أي السريع الذي يأتي بغتة بغير سبب المرض الظاهر الذي يعرفه الإنسان من نفسه: كالسكتة القلبية، أو القتل...

وقال:

«يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»[٣].

والموت هول عظيم، يلاقي الإنسان فيه من الشدة ما يلاقي، وقد روي عن النبيﷺ أنّه كان (بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»[٤].

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب: ذكر الموت والاستعداد له) ٢/٤٢٢، حديث ٤٢٥٩، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، حديث ١٣٨٤.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في المبادرة بالعمل) ص٥٢١، حديث ٢٣٠٦.

(٣) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة (باب: ٢٣) ص٥٥٣، حديث ٢٤٥٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: مرض النبيﷺ ووفاته) ص١١٠٤، حديث ٤٤٤٩.

سكرات الموت

والذي يقوم بقبض الأرواح هو ملك الموت، وله أعوان من الملائكة تقوم بهذه المهمة، فتأتي المؤمن بصورة حسنة جميلة، تبشّره برضوان الله عنه ومغفرته له، وتأتي الكافر والمنافق بصورة مخيفة، وتبشّره بسخط الله وعذابه عليه. والموت له سكرات وكربات وشدائد وغمرات، ولو نجا منها أحد لنجا منها النبيﷺ.. والكافر والمنافق يعاني من سكرات الموت أكثر مما يعانيه المؤمن، والذين تُخفف عنهم سكرات الموت هم الشهداء الذين يسقطون في المعارك. ويتمنى الإنسان في حالة الاحتضار أن يُنسأ له في أجله: فإن كان كافرا فلعله يسلم، وإن كان مسلما لكنّه مفرّط في جنب الله، فلعلّه يتوب، قال الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة المؤمنون.

ولا تنفع التوبة إذا حضر الإنسان الموت وهو في النزع الأخير في الغرغرة.

إنّ قلب المؤمن يرتجف حين تُذكر أمامه سكرات الموت. ويزداد خوفه ووجله أكثر، حين يقرأ الحديث الذي مرّ بنا آنفا في أمر سكرات الموت، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه وقد اختار الرفيق الأعلى: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»[١] أي غشيات شديدات وكربات.

ويبلغ بالإنسان الخوف والوجل مبلغه حين يعاين تلك السكرات. ولا عجب

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: مرض النبيﷺ ووفاته) ص١١٠٤، حديث ٤٤٤٩.

في ذلك، فإنّ من عباد الله المعروفين بالصلاح من كان يفزع إذا ذُكرت سكرات الموت أمامه، وإذا سُئل عن سبب ذلك أجاب: رؤية ملك الموت، رؤية ملك الموت! ذلك لأنّ رؤية ملك الموت تُدخل الهلع والفزع في قلب الإنسان المذنب، وكيف لا يدخله الخوف والهلع والفزع، وهو يتلو آيات القرآن المتحدثة في سكرات الموت؟! قال الله تعالى:

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة ق.

وسكرة الموت هنا: ما يحدث للمحتضر حين تُنزع النفس منه، فتغشاه شدة أيّة شدة، حين تنفصل النفس عن الجسد. وقبل أن يتم الانفصال يُدرك الإنسان الحقيقة أمامه واضحة لا لبس فيها ولا حجاب، ويتمنى أن يتوب وتُقبل توبته، ولكن هيهات فقد مضى وقت التوبة وفات الأوان.

وتحدث القرآن عن سكرات الموت في آيات أخرى فقال تعالى:

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة القيامة.

وقال:

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ سورة الواقعة.

وقال:

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾

﴿فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ سورة الواقعة.

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ سورة فصلت.

وغير ذلك من الآيات.

ويُفصح النبيﷺ عن هذه الحقيقة بما روته السيدة عائشة –أو بعض أزواجه– فقالت: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أَحب إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِرَ، بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»(١).

ويبدو من هذا الحديث أن المحتَضَرَ يعلم: أيكون هو من أهل الجنة أم يكون من أهل النار: فإذا كان من أهل الجنة أحب لقاء الله؛ فأحب الله لقاءه، وإن كان من أهل النار يصيبه ما يصيبه من الذعر والخوف والفزع، فيكره لقاء الله، فيكره الله لقاءه، وينزل به الموت. يقول النبيﷺ:

«إنّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي: إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب:من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه) ص ١١٢٨، حديث ٦٥٠٧.

مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[1].

هكذا يشعر من عَمَرَ الإيمان قلوبهم بالفرح حين تتولى الملائكة قبض أرواحهم، إذ يبشرونهم برضوان الله عنهم، ويطمئنون قلوبهم بذلك، ويرحبون بقدومهم، ويعجلون لهم بالبشرى؛ فقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة النحل.

إنّهم المؤمنون الطائعون لله رب العالمين، فهم (طيبون). وتجمع هذه اللفظة القرآنية (طيبون) المعاني الكثيرة لطاعة الله. فهم قد استجابوا لكل أمر من أوامره تعالى، وانتهوا عن كل نهي من نواهيه؛ فوصفوا بهذا الوصف الذي ينبعث منه الطيب من كل جانب.

أجل، لا يشعر المؤمن الطائع لله بشيء من العذاب حين تستل روحه من جسده؛ إذ تُستل كما تُستل الشعرة من العجين، ويكون ملك الموت بقبض روحه رفيقا، وليس كذلك الكافر والمنافق، فإنّ كل واحد منهما يُعذّب حين تخرج نفسه. فعن البراء بن عازبؓ قال:

(خرجنا مع النبيﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولمّا يُلحد، فجلس رسول اللهﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: الميت يُعرض عليه مقعده بالغداة والعشي) ص٢٢١، حديث ١٣٧٩.

وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان؛ فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون – يعني بها– على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟! فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتَهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى؛ فتعاد روحه في جسده... وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح؛ فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فَتَفَرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السُّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا،

حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا؛ فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ «فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا». ثم قرأ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾...)[1].

الصحابة وذكر الموت

كلما ازداد الإنسان معرفة بالله تعالى وباليوم الآخر، ازداد خوفه من الله، وخشيته منه ﷻ، فصار يحاسب نفسه على كل ما يصدر عنه من أقوال وأعمال. ومهما قدّم من طاعة وعبادة له سبحانه، فإنّه يراها قليلة قليلة، ويخشى أن يردّ الله عليه ما قدّمه من عمل فتكون الخسارة العظمى التي ما بعدها خسارة. وقد كان صحابة النبي رضي الله عنهم أصحاب حساسية مرهفة، تتجلى ببكائهم الطويل من ذكر الموت الذي وضعوه نصب أعينهم ليلا ونهارا لا يفارقهم، متذكرين أهوال يوم القيامة، وما يقدم عليه الإنسان من سفر طويل نهايته الجنة أو النار، وهذه نماذج من خوف الصحابة من الموت وإكثارهم من ذكره.

١-كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد نقش خاتمه: كفى بالموت واعظا يا عمر[2].

وكان رضي الله عنه يقول: كل يوم يُقال: مات فلان وفلان، ولابد من يوم يقال فيه:

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح ٣٠/٤٩٩-٥٠٢، حديث ١٨٥٣٤.

(٢) تهذيب الكمال للمزي ٢١/٣٢٣، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى ١٤٠٠-١٩٨٠، مؤسسة الرسالة، بيروت.

مات عمر [١].

ولمّا طعن أبو لؤلؤة فيروز المجوسي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في صلاة الصبح طعنات مسمومة وأحسّ بدنو أجله، تحدّث وهو على فراش الموت، فكان من آخر كلماته التي تحدث بها: (والذي نفسي بيده، لوددت أني خرجت منها –أي من الخلافة– كما دخلت فيها: لا أجر ولا وزر)[٢].

وقال:

(..والله، لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه)[٣].

وروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال لي: ضعْ رأسي على الأرض. قال: فقلت: وما عليك كان على فخذي أم على الأرض؟ قال: ضعه على الأرض؛ قال: فوضعته على الأرض فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي)[٤].

قال أمير المؤمنين هذا وهو الذي عُرف بإيمانه العميق، وبصيام النهار وقيام الليل، واهتمامه بتفقد أحوال رعيته، وتواضعه الجم، ومحافظته على مال

---

(١) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي ص١٦٧ بتحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة –حاشية المحقق– الطبعة العاشرة، دار السلام، القاهرة.

(٢) حلية الأولياء ٨٩/١.

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (باب: مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) ص٩٣٥، حديث ٣٦٩٢.

(٤) حلية الأولياء ٨٩/١.

الأمة..أمّا عدالته، فقد طبقت أرجاء الأرض، وسار بذكرها الركبان، وشهد له حتى الأعداء بذلك، فلا نجد نظيرا لها إلا ما كان من عدالة النبيﷺ فهو خير من طبّق العدالة والخلفاء الراشدين، وقد فتح للإسلام العراق وبلاد فارس والشام ومصر وأطرافا من إفريقية، ثم كانت خاتمته سقوطه شهيدا وهو يصلي في المحراب...، فكيف بغيره من الناس؟!!!

٢-عن هانئ مولى عثمان بن عفانرضي الله عنه قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! فقال: إن رسول اللهﷺ قال: «إنّ القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد منه»(١).

٣-وكان سيدنا علي بن أبي طالبرضي الله عنه يقول: (إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى)(٢).

وخطبرضي الله عنه خطبة قال فيها:

(أيها الناس، اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم. وبادروا الموت الذي إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم)(٣).

وكانرضي الله عنه يقول:

---

(١) رواه الترمذي في (باب: ما جاء في ذكر الموت ٥) ص٥٢٢، حديث ٢٣٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦٩/١٨، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، الطبعة الأولى ١٤١٨-١٩٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد ٢٥٤/١، تحقيق: جمعة الحسن، الطبعة الأولى ١٤٢٥-٢٠٠٤، دار المعرفة، بيروت.

أشـــــدد حـــيازيمـــك للموت فـإنّ الـموت لاقـيكـا
ولا تجزع من الموت وإن حـلّ بناديكا

٤-ولمّا نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال:

(أخرجوا فراشي إلى صحن الدار؛ فأُخرج، فقال: اللهم إني أحتسب نفسي عندك؛ فإنّي لم أُصب بمثلها)[١].

٥-وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

(إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[٢].

وكانﷺ إذا ذُكر الموت والقيامة انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت، ثم يبكون، حتى كأنّ بين أيديهم جنازة)[٣].

٦-وقال أبو الدرداءﷺ:

(إذا ذُكر الموتى، فعدّ نفسك كأحدهم)[٤].

وقال:

(من أكثر ذكر الموت، قلّ فرحه وقلّ حسده)[٥].

وقال:

(لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة، ولا

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص٤٩٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: قول النبيﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ص١٥٨٠-١٥٨١، حديث ٦٤١٦.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص٤٨٢.

(٤) مختصر منهاج القاصدين، ص٤٨٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢/٣٥٣.

شربتم شرابا على شهوة، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أنّي شجرة تُعضد –تقطع– ثمّ تؤكل)[١].

وكانﷺ يقعد إلى القبور. فقيل له في ذلك فقال: (أجلس إلى قوم يُذكّروني معادي، وإن غبت لم يغتابوني)[٢].

٧–وقال أويس القرنيﷺ لهرم بن حيان حين طلب منه أن يوصيه:

(توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما... ولا تنظر في صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت)[٣].

٨–وروي عن معاذ بن جبلﷺ قال لمّا حضرته الوفاة:

(مرحباً بالموت زائر مغيَّب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إنّي كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنّك تعلم أنّى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)[٤].

٩–ولقد بكى أبو هريرةﷺ في مرضه فقيل له: (ما يبكيك؟ قال: ما أبكي على دنياكم هذه، ولكن على بُعد سفري، وقلة زادي، وأني أمسيت في صعود،

---

(١) الداء والدواء لابن قيم الجوزية ص٨٢، تحقيق: يوسف علي بديوي، الطبعة السابعة ١٤٣٢–٢٠١١، دار ابن كثير، دمشق–بيروت.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص٤٩٩.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي، ٥٥/٣.

(٤) مختصر منهاج القاصدين، ص٤٩٨.

ومهبطه على جنة أو نار، فلا أدري أيهما يُؤخذ بي)[١].

١٠- وبكى سلمان عند الموت، فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما أبكي ضنّا -أي بخلا- بدنياكم، ولا جزعا من الموت، ولكن قلة الزاد، وبُعد المفاز)[٢].

١١- وقالت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها: إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها؛ فقالت: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك؛ ففعلت فرقّ قلبها، فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها[٣].

وهكذا نرى الإكثار من ذكر الموت دواءا للغفلة التي تصيب الإنسان إذا تأمّل به وبسكراته وكرباته، وأكثر من ذكره ومن زيارة القبور، وتذكّر أنّ من أصحاب هذه القبور التي يزورها من كان أكثر منه مالا وقوة ومكانة اجتماعية، فقد طواهم التراب، وما عاد يذكرهم ذاكر.

إنّ هذا لون من ألوان علاج النفس، يحول بين الإنسان وبين الوقوع فيما حرّم الله. إنّه علاج للغفلات التي تصيب كل إنسان، وبخاصة في عصرنا هذا الذي كثرت مغرياته، وتعددت صنوف شهواته.

وأحبّ -بعد هذا- أن أنقل لكم ما خطه يراع (الحارث المحاسبي)[٤] في

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٦٢٥.

(٢) موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا -كتاب المحتضرين- ٤/٢٩٩-٣٠٠.

(٣) العاقبة في ذكر الموت، تأليف: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأشبيلي، ١/٤١، تحقيق: خضر محمد خضر، الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦، مكتبة دار الأقصى، الكويت.

(٤) هو الحارث بن أسد المحاسبي. ولد بالبصرة، ولم يُعرف تاريخ ولادته. وقد عُرف بالعلم والزهد، وتأثيره بالوعظ، فهو أحد الزهاد المعروفين بالعبادة، وقد أثنى عليه كثير من العلماء، وانتقده علماء آخرون، وربما كان هذا من تكلم الأقران بعضهم في بعض، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويُردّ عليه إلا رسول اللهﷺ. وله عدد من المؤلفات المطبوعة وأخرى ما زالت

رسالته (التوهم) متحدثا عن موت الإنسان الطائع وغير الطائع، بطريقة الخطاب، فطلب من قارئ رسالته أن يستحضر قلبه وعقله لما سيحل به غدا عند الموت، فيضع ذلك أمامه ويفكر فيه، كما طلب منه أن يتخيّل ما يصير إليه؛ ليعدّ لذلك اليوم عدته. وأقتصرُ هنا على نقل ما يتعلق من الرسالة بالموت فقط، لما في ذكر ذلك من ترقيق للقلوب، وجلاء لها من الران الذي يُغلّفها، قال رحمه الله يخاطب كل إنسان طائع أو غير طائع:

(فتوهَّمْ نفسَك وقد صُرِعْتَ للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك. فتوهَّمْ نفسَك في نزع الموت وكربه، وغصصه وسكراته، وغمِّه وقلقه، وقد بدأ الملَكُ يجذب روحك من قدمك، فوجدت إلمَ جذبه من أسفل قدميك، ثم تدارَكَ الجذبَ واستحثَّ النزع، وجُذبت الروح من جميع بدنك، فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك، حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه، وعمّت آلام الموت جميع جسمك، وقلبُك وجل، محزون مرتقب، منتظر للبشرى من الله ﷻ بالغضب أو الرضا، وقد علمت أنّه لا محيص له دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك)

(فبينما أنت في كربك وغمومك، وألم الموت بسكراته، وشدة حزنك لارتقابك إحدى البشريين من ربك، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها، ونظرت إليه مادا يده إلى فيك ليُخرج روحك من بدنك، فذلت نفسك لما عاينت ذلك، وعاينت وجه ملك الموت، وتعلق قلبك بماذا

مخطوطة. فمن مؤلفاته المطبوعة: ١- التوهم. ٢- الرعاية لحقوق الله. ٣- رسالة المسترشدين. ٤- كتاب الوصايا...وتوفي -رحمه الله- في بغداد سنة ٢٤٣.

يفجؤك من البشرى منه؛ إذ سمعت صوته بنغمته: أبشر يا وليّ الله برضا الله وثوابه، فتستيقن حينئذ بنجاحك وفوزك، ويستقر الأمر في قلبك فتطمئنّ إلى الله نفسك، أو تستيقن بعطبك وهلاكك، ويحل الإياس قلبك، وينقطع من الله ﷻ رجاؤك وأملك، فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن، أو الفرح والسرور قلبك، حين انقضت من الدنيا مدتك، وانقطع منها أثرك، وحُملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك)[١].

وأختم حديثي بما قاله عدي بن زيد:

أين أهل الديار من قوم نوح	ثم عاد من بعدهم وثمود
أين آباؤنا وأين بنوهم	أين آباؤهم وأين الجدود
سلكوا منهج المنايا فبادوا	وأرانا قد حان منا ورود
بينما هم على الأسرة والأنماط	أفضت إلى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن	بعد ذاك الوعيد والموعود
وأطباء بعدهم لحقوهم	ضل عنهم صعوطهم واللدود[٢]
وصحيح أضحى يعود مريضا	هو أدنى للموت ممن يعود

---

(١) كتاب الوصايا للحارث المحاسبي ص٢٤٣-٢٤٤، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى ١٤٢٤-٢٠٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الصعوط والسعوط: اسم للدواء يصب في الأنف، واللدود من الادوية ما يُسقاه المريض في أحد شقي الفم. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/١١٠.

الزهد

قدوة المسلم العليا في كل مكرمة من المكرمات الباهرات، هو رسول اللهﷺ. وأول من اقتدى به فأحسن الإقتداء بصفاته العليا هم صحابته الكرام رضي الله عنهم. فقد عاشوا معه، ورأوا من أحواله العامة والخاصة ما لم يره غيرهم: رأوا أقواله التي صدقتها الأفعال، ورأوا حقيقة الزهد في حياته كيف يكون، فاقتدوا به خير اقتداء، فكان الواحد منهم أسعد ما يكون حين يقتدي بكل فعل من أفعاله، وينفذ كل قول من أقواله. وسأكتفي هنا بذكر نماذج من أقواله وأفعاله في الزهد[1] ثم اتبعها باقتداء الصحابة به في ذلك.

ننظر في سيرة النبيﷺ ، فنرى تأثره الكبير بكل آية من آيات القرآن – وبخاصة الآيات الداعية إلى الزهد بزهرة الحياة الدنيا – ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ سورة النساء/٧٧.

وقوله:

---

(١) تدل مادة (زهد) على القلة في كل شيء، قال تعالى في قصة نبي الله يوسف عليه السلام ﴿ **وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ** ﴾ سورة يوسف/٢٠.

وتقول: زهد في الأمر الفلاني: أي أعرض عنه وتركه، وزهد في الدنيا أي ترك حلالها مخافة الحساب أو طلبا للثواب.

والزهد في الإصطلاح: هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة. وقيل هو أن يخلوَ قلبك مما خلت منه يدك(ينظر: التعريفات للجرجاني).

وحقيقته: انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه كما يقول الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين).

﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ سورة آل عمران/١٨٥.

وقوله:

﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾ سورة القصص.

وقوله:

﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ﴾ سورة الحديد.

قرأ النبيﷺ هذه الآيات وغيرها، فطبقها على نفسه خير تطبيق أولا، ثم دعا صحابته إلى الزهد في الحياة الدنيا في أحاديثه الكثيرة، ومنها قوله ﷺ لعبد الله بن عمر:

«كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل»[١].

وقوله:

«والله ما الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحدكم اصبعَهُ هذه – وَأَشَارَ يحيى بِالسَّبَّابَةِ– في الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يرجع»[٢].

وقوله:

«يقول ابن آدَمَ مَالِي مَالِي قال وَهَلْ لك يا بن آدَمَ من مَالِكَ إلا ما أَكَلْتَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: قول النبيﷺ كن في الدنيا كأنك غريب) ص١٥٨٠، حديث ٦٤١٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة) ٢١٧٣/٤، حديث ٢٨٥٨.

فَأَفْنَيْتَ أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»[١].

وقوله:

«من أصبح آمنا في سربه معافى في جسده عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[٢].

وقوله:

« ازْهَدْ في الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله وَازْهَدْ فِيمَا في أَيْدِي الناس يُحِبُّوكَ»[٣].

وقوله:

«ما لي وَلِلدُّنْيَا ما مثلي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ سار في يوم صائف فاستظل تَحْتَ شَجَرَةٍ ساعة من نهار ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[٤].

ولننظر كيف كان الزهد العملي للنبيﷺ:

عن عروة عن عائشة رضي الله عنهما أنها كانت تقول:

(والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول اللهﷺ نار. قال: قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول اللهﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منايح، فكانوا يرسلون إلى رسول اللهﷺ من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، ٢٢٧٣/٤، حديث ٢٩٥٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد (باب: من أصبح آمنا في سربه)، ص٩٨، حديث ٣٠٠، خرّج أحاديثه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب: الزهد في الدنيا)، ١٣٧٤/٢، حديث ٤١٠٢.

(٤) رواه الإمام أحمد ٢٢٢/٣، حديث ٢٧٤٤.

ألبانها فيسقيناه)[١].

وروى ابن عباسﷺ قال: حدثني عمر بن الخطابﷺ قال: (دخلت على رسول اللهﷺ وهو على حَصِيرٍ. قال فَجَلَسْتُ فإذا عليه إِزَارٌ وَلَيْسَ عليه غَيْرُهُ وإذا الْحَصِيرُ قد أَثَّرَ في جَنْبِهِ وإذا أنا بِقَبْضَةٍ من شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَقَرَظٍ في نَاحِيَةٍ في الْغُرْفَةِ وإذا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ فقال: ما يُبْكِيكَ يا بن الْخَطَّابِ فقلت يا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَالِي لا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قد أَثَّرَ في جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَى فيها إلا ما أَرَى وَذَلِكَ كسرى وَقَيْصَرُ في الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟ قال: يا بن الْخَطَّابِ ألا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لنا الآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا؟ قلت: بَلَى)[٢].

وروى النعمان بن بشير قول عمر بن الخطابﷺ:

(لقد رأيت رَسُولَ اللَّهِﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يلتوى ما يَجِدُ دَقَلا[٣] يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ)[٤].

وعن أنس بن مالكﷺ أنّ فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز إلى النبيﷺ فقال: «ما هذه؟»، قالت: قُرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة. فقال: «أما إنّه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام»[٥].

هذه أمثلة قليلة من مئات الأمثلة، تنصُّ على زهد النبيﷺ بزينة الحياة

---

(١) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم تأليف: محمد بن فتوح الحميدي ١٣٨/٤، تحقيق: د. علي حسين البواب، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، دار ابن حزم لبنان، بيروت.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد ١٣٩٠/٢-١٣٩١، حديث ٤١٥٣.

(٣) الدقل: التمر الرديء

(٤) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، ٢٢٨٥/٤، حديث ٢٩٧٨.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٠١/٢٧.

الدنيا، فقد كان ﷺ يعيش وأزواجه كما يعيش أكثر الناس فقرا في مكة، وليس ذلك لعدم قدرته على الحصول على المال؛ إذ إنه لو أراد ذلك، لجمع من المال ما لم يجمعه أحد غيره في الجزيرة العربية. ألم يساومه مشركو مكة أن يجمعوا له المال ليكون أكثرهم مالا، مقابل أن يتخلى عن دعوته فأبى ذلك؟.

إنه الزهد الذي ضرب به من الأمثلة أروعها. ويكفينا أن نعلم أنه صلوات الله وسلامه عليه توفي وما في بيته شيء يؤكل إلا شطر شعير في رف للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. يقول عمرو بن الحارث رضي الله عنه.

(ما تَرَكَ رسول اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا ولا دِينَارًا ولا عَبْدًا ولا أَمَةً ولا شيئا إلا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً)[1].

إنّ هذا المنهج في الزهد كان له أثره البالغ في صحابته الكرام،فقد اقتدوا به في كل جانب من جوانب حياته –ومنها جانب الزهد– فكانت الآخرة نصب أعينهم، بعد أن آمنوا إيمانا عميقا أنّ الدنيا إنْ هي إلا دار فناء، وأنها لم تكن سوى سُلّم لدار الخلود.

ولننظر إلى زهد صحابة النبي رضي الله عنهم، اولئك الذين علّموا الدنيا كيف يكون الزهد، ونبدأ بالخلفاء الراشدين:

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: مرض النبي ووفاته) ص١١٠٥، حديث ٤٤٦١.

زهد أبي بكر الصديقرضي الله عنه

فهذا خليفة رسول الله أبو بكر الصديق كان من التجار الكبار، وكان له أربعون الف دينار ذهبا- وفي لفظ اربعون ألف درهم- فأنفقها على رسول اللهﷺ ولم يبق عنده منها يوم مات النبيﷺ إلا القليل، فلمّا صار خليفة للمسلمين ألقى بما كان معه من المال في بيت مال المسلمين، وماترضي الله عنه ولم يخلف دينارا ولا درهما. ولننظر وصيته قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، لنجد الزهد كيف يكون: فقد أوصى بأن يكفن بثوبين قديمين وقال:

(أنظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما، وكفنوني فيهما؛ فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت)[١].

وأوصى ابنته أم المؤمنين عائشة بقوله:

(إنا ولينا أمر المسلمين، فلم نأخذ لنا دينارا ولا درهما، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فأبعثي بهن إلى عمر)[٢].

ولم يكتف أبو بكر بهذا، فقد أوصى ابنته عائشة بقوله:

(انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عني)[٣].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٤ الطبعة الثانية ١٤٢٦-٢٠٠٥، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد تأليف: محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، ٢٠٠/٣ دار صادر بيروت.

(٣) إمام الأمة وقائدها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق، تأليف د. حامد محمد الخليفة ٨٥٢/٢، الطبعة الأولى ١٤٢٨-٢٠٠٧، عمان، الأردن

ذلك لأن الصحابة كانوا قد فرضوا له شيئا يسيرا من المال ليقتات به مع أهله؛ إذ ترك تجارته، وتفرغ لشؤون الخلافة. وقد قامت أم المؤمنين باعادة ما أخذه في خلافته لبيت المال.!

إنه الزهد في أجمل صورة من صوره، يتحلى به خليفة رسول الله ﷺ! وهيهات أن تجد الدنيا مثيلا له أو شبيها في تواريخ العالم قديمه وحديثه.!

زهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان قد بلغ في الزهد قمته؛ إذ تأثر بزهد النبي ﷺ في أحاديثه القولية والعملية: فكان طعامه الملح والزيت والخل، ولو شاء أن يأكل من أطايب الطعام لكان ذلك في متناول يده، فقد فتحت الدنيا أمامه: ففتح ما يقرب من نصف العالم في خلافته، لكنّه الزهد الذي لا يدانيه زهد.

دخل يوما على ابنته حفصة أم المؤمنين، فقدمت له مرقا باردا وخبزا وصبت في المرق زيتا، فلم يذق شيئا من ذلك وقال: أُدمان في إناء واحد؟! لا أذوقه حتى ألقى الله[1].

وكان رضي الله عنه كثير الصيام (فلما كان زمان الرمادة، إذا أمسى أُتي بخبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يوما من الأيام جزورا، فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها، فأتي به، فإذا فدر (قطعة) من سنام ومن كبد، فقال أنى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرناها اليوم، قال: بخ بخ، بئس الوالي أنا

---

(١) الطبقات الكبرى٣/٣١٩.

إن أكلت طيبها، وأطعمت الناس كراديسها[١]، إرفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال: فأتي بخبز وزيت قال: فجعل يثرد ويكسر ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا يرفأ (اسم غلامه): إحمل هذه الجفنة تأتي بها أهل بيت بثمغ (موضع وقف عمر)؛ فأني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين؛ فضعها بين أيديهم)[٢].

ومن أقواله التي سارت بذكرها الركبان:

(كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم؟!)[٣].

حتى بعد أن فرج الله عن المسلمين زمان الرمادة، وعادت الحياة الطبيعية إلى الناس يأكلون ويشربون وهم في سعة من العيش، ظل أمير المؤمنين زاهدا في متع الحياة الدنيا، فلا يأكل إلا الخشن من الطعام ولا يلبس إلا الخشن من الثياب، وبينما كان الناس يأكلون ويتمتعون (قدمت السوق عكّة من سمن، ووطب من لبن، فاشتراهما غلام لعمر باربعين (درهما) ثم أتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبرّ الله يمينك، وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتهما باربعين، فقال عمر: أغليت بها؛ فتصدق بهما؛ فإني أكره أن آكل اسرافاً)[٤].

وقد وصف شاعر النيل حافظ إبراهيم زهده فقال:

---

(١) الكراديس: رؤوس العظام.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/٣١٢، و ٣/٢٩٠ طبعة الخانجي، والرياض النضرة للمحب الطبري ١/٣٨٥.

(٣) تاريخ الطبري٤/٩٨ تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، الطبعة السادسة، دار المعارف.

(٤) تاريخ الطبري ٤/٩٨.

إن جاع في شـــدة قوم شـــركتهم   في الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جوع الخليفة –والدنيا بقبضـــته–   في الزهد منزلة ســـبحان موليها
فمن يباري أبا حفص وسيرته   أو من يحاول للفاروق تشبيها[١].

أما عن ملابسه فكان يلبس أدنى مما يلبسه عامة الناس، فقد خطب يوما –وهو خليفة– وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[٢] وطاف ببيت الله الحرام وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة أحداهن بأدم أحمر[٣]. وانتظر الناس يوم الجمعة أمير المؤمنين عمر ليخطب بهم إذ ابطأ عليهم، ثم خرج فاعتذر اليهم عن احتباسه وقال: إنما حبسني غسل ثوبي هذا، كان يغسل، ولم يكن لي ثوب غيره[٤].

ومن زهده رضي الله عنه أنه ما كان يضرب له فسطاط ولا خباء في سفره(كان يلقي الكساء والنِّطع على الشجرة فيستظل تحته)[٥].

وهذه حفصة ابنة عمر أم المؤمنين قالت: لأبيها يوما: يا امير المؤمنين، لو لبست ثوبا هو الين من ثوبك، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك، فقد وسع الله عز وجل من الرزق، واكثر من الخير قال: اني سأخصمك إلى نفسك(أي سأجعلك حكما على نفسك)، اما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٩٣/١ بتحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٦٩.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص١٠٩ حديث ٦٥٨، الطبعة الأولى ١٤٢٦–٢٠٠٥ مؤسسة الريان، بيروت.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٢٨/٣.

(٤) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص١٠٨، حديث٦٥٥.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧٩/٣ واسناده صحيح.

العيش؟ فما زال يذكرها حتى ابكاها فقال لها: ان قلت لك ذاك اني والله لئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلي ادرك معهما عيشهما الرخيّ)[١].

هذا جانب من جوانب زهد عمر، وهو غني عن أي تعليق كان، ويحق لكل منصف أن يسأل. هل عرفت الدنيا قديمها وحديثها من وصل إلى عشر ما وصل اليه عمر في زهده؟!.

زهد عثمان بن عفانﷺ

وهذا عثمان بن عفانﷺ كان من أكثر المسلمين مالا، وقد ضرب أروع الأمثلة بالزهد في العيش والجاه: فقد كان أميراً للمؤمنين، وتوسعت في عهده الفتوحات الإسلامية، ومع هذا لم يكن عنده شيء من التباهي بزينة الحياة الدنيا، فكان يلبس الإزار الغليظ، ويقيل في المسجد في ملحفة وليس حوله أحد، فيقوم وقد أثر الحصير في جنبه، ويراه الناس راكبا على بغلة وغلامه (نائل) خلفه. وقد غضب يوما على عبد له فعرك أذنه، وتذكر عثمان القصاص يوم القيامة؛ فندم على ما كان منه وجاء إلى عبده قائلا له:

(إني كنت قد عركت أذنك فاقتصَّ مني!) ويستحيي العبد من كلام أمير المؤمنين عثمان، فيلح عليه أن يفعل قائلا له: شدّ شدّ، يا حبذا قصاص في الدنيا ولا قصاص في الآخرة)[٢].

وكانﷺ يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الزيت والخل، وكان يكره التفاخر بالكرم، والتباهي بنوع الطعام أو كثرته، فكان منهجه هذا لونا

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص١٠٩، حديث ٦٦٠.

(٢) التذكرة الحمدونية لمحمد بن الحسن بن محمد ٢١٢/٣، دار صادر بيروت.

من ألوان التزهيد بالجاه. فعن حميد بن نعيم: (أن عمر وعثمان رضي الله عنهما دعيا إلى طعام فلما خرجا، قال عثمان لعمر: قد شهدنا طعاما لوددنا أنا لم نشهده، قال: لم؟ قال: إني أخاف أن يكون صنع مباهاة)[١].

ولقد كانﷺ زاهدا بالجاه –أيضا–. فلما تداعى الغوغاء لقتله، طلب الصحابة أن يدافعوا عنه فأبى، وقد قال له المغيرة بن شعبة:

(إن معك عددا وقوة، وأنت على الحق وهم على الباطل. فقال له عثمان: (لن أكون أول من خلف رسول اللهﷺ في أمته بسفك الدماء)[٢].

وطلب منه عبد الله بن الزبير أن يقوم بنصرته فأبى وهكذا الأمر في زيد بن ثابت والحسن بن علي وعبد الله بن عمر وأبي هريرة وغيرهم كثير ..! إنه الزهد بالدنيا الذي تعلمه من رسول اللهﷺ.

زهد علي بن أبي طالبﷺ

عرف أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبﷺ بزهده الذي سارت بذكره الركبان، وكان ذلك من تاثير القرآن الكريم فيه، ومن معايشته لرسول اللهﷺ، ومن اعتقاده الجازم أن هذه الدنيا هي دار اختبار للإنسان ليس إلا وأنّ الآخرة هي دار القرار، لذلك استهان بزخارف الحياة الدنيا كلها، بعد أن جاءت إليه بمباهجها ومغرياتها، فكان مثلا لكل حاكم صالح. وقد كان ﷺ يدعو إلى الزهد بأقواله ويطبق ذلك بأفعاله، فمن أقواله الداعية إلى الزهد:

(طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا أرض

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص١١١، حديث ٦٦٩.

(٢) رواه البخاري في كتابه التاريخ الصغير ١/١٠١ بتحقيق محمود إبراهيم زايد الطبعة الأولى ١٤٠٦/ دار المعرفة بيروت.

الله بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والكتاب شعارا، والدعاء دثارا، ورفضوا الدنيا رفضا)[١].

وقوله:

(ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتْ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا من أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ولا تَكُونُوا من أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فإن الْيَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ ولا عَمَلٌ)[٢].

وقوله:

(يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا أَبِي تَعَرَّضْت، أَمْ لِي تَشَوَّفْت، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بِنْتُكِ ثَلاثًا لا رَجْعَةَ لِي فِيك!، فَعُمُرُك قَصِيرٌ، وَعَيْشُك حَقِيرٌ، وَخَطَرُك كَبِيرٌ، آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ)[٣].

وأما تطبيقه العملي للزهد، فهذه أمثلة على ذلك:

١-عن علي بن ربيعة الوالبي عن علي بن أبي طالب قال: جاءه ابن النباح فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء. فقال الله أكبر! فقام متوكئا على ابن النباح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال:

---

(١) شعب الإيمان ٣٧٢/٧ تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى١٤١٠، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: الأمل وطوله) ص١٥٨١.

(٣) مختارات من أدب العرب لأبي الحسن علي الحسني الندوي ص١٩-٢٠، الطبعة الثانية في دار ابن كثير، نقلا عن كتاب (صفة الصفوة) لأبن الجوزي ١٩٦/١، دار الكتب العلمية بيروت.

هذا جناي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح عليّ بأشياع الكوفة. قال: فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ها وها حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين[1].

وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي:

(كان علي يكنس بيت المال ويصلي فيه يتخذه مسجدا؛ رجاء أن يشهد له يوم القيامة)[2].

ونلاحظ في هذا الخبر، أن سيدنا علياﷺ لمّا جاءه ابن النباح وأخبره بامتلاء بيت المال بالذهب والفضة، فرح بذلك من أجل التوسعة على المسلمين وقال: الله أكبر، وقامﷺ بتفريقه بين المسلمين، وخاطب الدنيا بقوله: (غري غيري)؛ لأن الدنيا حلوة خضرة، فيها من المغريات ما يأخذ بالألباب، فلا يستطيع أن يقف أمام مغرياتها إلا من ملأ الله قلبه بالإيمان الحق، ومن اجدر بذلك من أمير المؤمنين علي وأمثاله؟! لقد زهد بالدنيا، ولم يُبق في قلبه شيئا من حبها.

وتبدو الروعة في صورة من أجمل صورها حين قام وصلى ركعتين في بيت المال الذي خلا من ذلك المال؛ لعلَّ هاتين الركعتين تشهد بعدله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٢–عن هرون بن عنترة عن أبيه قال: (دخلت على علي بن أبي طالب

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠) ٨١/١ الطبعة الرابعة ١٤٠٥، دار الكتاب العربي بيروت.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٨١/١

بالخورنق (موضع بالكوفة) وهو يرعد تحت سمل قطيفة(أي قطيفة قديمة)؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع! فقال: والله ما أرزؤكم(أي ما أنقصكم) من مالكم شيئا، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي –أو قال من المدينة–)[1].

لقد كان باستطاعة أمير المؤمنين عليرضي الله عنه، أن يشتري له أحسن وأفضل الملابس ليقي نفسه من ذلك البرد القارس: فهو أمير المؤمنين، ويحق له ما يحق لغيره، ولكن هيهات! فقد تغلغل الزهد في أعماق نفسه، فأيقن أنّ ما عند الله خير وأبقى، فلم يلتفت إلى ما يعانيه؛ ليُعلِّم الدنيا كيف يكون الزهد.

٣–عن عمر بن قيس: قيل لعليعليه السلام: لمَ ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب ويقتدي به المؤمن[2].

هذا الأسلوب يفصح عن حقيقة الزهد أولا، وعن اسلوب تربية الناس على الزهد ثانياً، لأنهرضي الله عنه كان في مقام القدوة، وترقيع القميص يبعد الإنسان عن الكبرياء.

وعن عبد الرحمن بن شريك عن جده عن علي بن أبي طالبرضي الله عنه أنه أتي بفالوذج (نوع من الحلوى) فوضع قدامه بين يديه فقال: (إنك طيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعوِّد نفسي ما لم تعتده)[3].

---

(١)حلية الأولياء لأبي نعيم ٨٢/١، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/٨، وثّقه وقابل مخطوطاته: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثانية ١٤٢٦–٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ١١٥/١

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٨١/١.

وعن مجمع بن سمعان التيمي قال: خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسيفه إلى السوق فقال: (من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزارا ما بعته)[1].

فلا نعجب إذن حين نقرأ عن الحسن بن صالح قوله: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال: (أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب)[2].

رضي الله عن الخلفاء الراشدين وعن الصحابة أجمعين، وجمعنا بهم في جنات النعيم!.

ولا يظنن أحد أن هذا الزهد كان خاصا بالخلفاء الراشدين وحدهم، بل هو سمة أكثر صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه نماذج من زهد عدد قليل منهم:

زهد سعيد بن عامر رضي الله عنه

(عن مالك بن دينار قال: لما أتى عمر رضي الله عنه الشام، وطاف بكورها[3] قال: فنزل بحضرة حمص، فأمر أن يكتبوا له فقراءهم، قال: فرفع إليه الكتاب، فاذا فيه سعيد بن عامر بن حذيم أميرها، فقال: من سعيد بن عامر؟ قالوا: أميرنا، قال: أميركم؟ قالوا: نعم؛ فعجب عمر ثم قال: كيف يكون أميركم فقيرا، أين عطاؤه؟ أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئا، قال: فبكى عمر ثم عمد إلى الف دينار فصرها، ثم بعث بها إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك. قال: فجاء بها إليه الرسول فنظر فاذا هي دنانير، قال: فجعل يسترجع قال: تقول له

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨/٤.

(٢) البداية والنهاية ٨/٦.

(٣) بكورها: بمدنها

امرأته ما شأنك يا فلان؟ أمات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عليّ، قالت: فاصنع فيها ما شئت، قال: عندك عون؟ قالت: نعم؛ قال: فأخذ دُريعة فصر الدنانير فيها صرارا، ثم جعلها في مخلاة، ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها)[1].

لقد كان سعيد في فقره سعيدا بحق، بل كان يعايش منتهى السعادة، إذ كان مقتديا برسول اللهﷺ في زهده، وهو يعلم ما أعدَّ الله من جزاء في عالم الخلود لمن يزهد في الدنيا، وينفق ماله في سبيل الله.

زهد أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه

روى الإمام أحمد في كتابه الزهد قال:

(قدم عمر رحمة الله عليه الشام، فتلقاه عظماء أهل الأرض وأمراء الأجناد، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: اتاك الان، قال: فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلم عليه وسأله، ثم قال للناس: انصرفوا، فسار حتى أتى منزله فنزل عليه، فلم ير في بيته الا سيفه وترسه ورمحه، فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً أو شيئاً؛ فقال أبو عبيدة: يا امير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل)[2].

إنه الإيمان الحق الذي يجعل الإنسان يضحي بزهرة الحياة الدنيا من أجل

---

(١) صفة الصفوة لأبن الجوزي ٦٦٤/١.

(٢) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، ص١٦٦، حديث ١٠٣٠، والمصنف للحافظ عبد الرزاق الصنعاني ٣١١/١١ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي.

الحصول على السعادة الأبدية يوم الدين وقد كان أمين هذه الأمة أبو عبيدة من خير من أنغرس الإيمان في قلبه؛ فادى الأمانة حقها، وزهد بمباهج الدنيا ومغرياتها، وقد بلّغه المتاع الضئيل الذي كان عليه المنزلة التي يستريح بها ويسعد، وذلك من أثر توجيهات النبيﷺ.

زهد عبد الله بن عمرؓ

لما قال النبيﷺ لعبد الله بن عمر بن الخطاب: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[1]، صار بحق كأنه غريب أو عابر سبيل، والحياة التي يحياها هذا الصحابي خير دليل على ذلك. ولندع التابعي الجليل ميمون بن مهران يصف لنا منزل ابن عمر فيقول:

(دخلت منزل ابن عمر، فما كان فيه ما يساوي طيلساني هذا)[2]. والطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن، خالٍ عن التفصيل والخياطة.

وعن نافع (أن ابن عمر كان يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم)[3].

(وعن هلال بن خباب عن قزعة قال: رأيت على ابن عمر -رحمه الله- ثيابا خشبة، فقيل أو خشنة فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إني قد أتيتك بثوب لين مما يصنع بخراسان فتقر عيني ان أراه عليك؛ فان عليك ثيابا خشبة أو خشنة، قال أرنيه حتى انظر اليه، قال فلمسه بيده وقال: احرير هو؟ قلت: لا انه من قطن، قال: إني أخاف إن أنا لبسته اخاف أن أكون مختالا فخورا، والله لا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ص ١٥٨٠، حديث ٦٤١٦.

(٢) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص١٧٢، حديث ١٠٥٥.

(٣) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص١٧٤، حديث١٠٧٠.

يحب كل مختال فخور)[1].

زهد عمير بن سعد

وهذا عمير بن سعد يوليه عمر بن الخطاب ولاية (حمص)، ويقوم بأداء وظيفته على خير ما يرام، ومكث عمير في حمص سنة ولم يأته خبره، فكتب إليه عمر أن يقبل عليه ويحمل ما جباه من الفيء (وأقبل راجلا، فدخل المدينة وقد شحب واغبرَّ وطال شعره، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين! فقال: ما شأنك؟ قال: ألستُ صحيح البدن، معي الدنيا. فظن عمر أنه جاء بمال، فقال: جئت تمشي؟ قال: نعم، قال: أما كان أحد يتبرع لك بدابة، قال: ما فعلوا ولا سألتهم. قال: بئس المسلمون! قال: يا عمر إن الله قد نهاك عن الغيبة، فقال: ما صنعت؟ قال: الذي جبيته وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به. قال: جددوا لعمير عهدا قال: لا عملتُ لك ولا لأحد؛ قلت لنصراني: أخزاك الله...)[2].

وبعث عمر رسولا له بمائة دينار –وكان منزل عمير على أميال من المدينة– فانطلق الرسول فنزل عنده ضيفا ثلاثة أيام، وليس لهم إلا قرص شعير يطعمونه إياه ويبيتان طاويين، وفي اليوم الثالث قال عمير لرسول عمر: قد أجعتنا! فأخرجَ رسول عمر الدنانير فدفعها اليه فلم يقبلها وصاح: لا حاجة لي بها ردها عليه، فطلبت منه زوجته أن يأخذها ويقسمها بين الفقراء من المسلمين، فأخذها وقسمها بين أبناء الشهداء. ولمّا مات عمير قال عمر:

---

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، ص ١٧٤–١٧٥، حديث ١٠٧٣.

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٣/٢٨٢، اعتنى به: محمد بن عبادي بن عبد الحليم الطبعة الأولى، ١٤٢٤–٢٠٠٣، مكتبة الصفا القاهرة.

وددت لو أن لي رجالا مثل عمير أستعين بهم في أعمال المسلمين.

وبعد:

فهذا جانب من جوانب الأثر الذي تركه رسول الله ﷺ في صحابته الكرام، وهو ينبئ عن الروح العالية التي كان عليها تلاميذ النبي المعلم. لقد وصلوا إلى منزلة في الزهد هيهات أن يصلها أحد! وما أحوج الناس –وبخاصة في عصرنا هذا– إلى أن يستذكروا هذه النماذج؛ خشية أن تجرفهم المادية الطاغية أكثر وأكثر، فينساقوا خلفها، وينسوا حق الله وحق دينهم عليهم. أقول هذا؛ لأننا نرى من الناس من يرتكب المحرمات، ويسلك سبيل الغش والخديعة والاحتيال والاحتكار والربا وأكل أموال الناس بالباطل من أجل جمع المال.!

إنها ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، وعسى الله أن ينفع بها.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

انفاق المال في سبيل الله

طبعت النفس البشرية على الشح، والله تعالى يقول:

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة الإسراء.

ويقول:

﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ سورة النساء/١٢٨.

ويقول النبيﷺ:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لأبتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

لذلك نرى الإنسان يحب الخير لنفسه فقط، ويضن به على الناس الآخرين. ولم يترك الله عباده تمزقهم الأنانية، فجعل لهم منهجاً يدفع من آمن به على الجود بالخير لعباد الله، وهذا الدافع: هو الإيمان بالله الإيمان الحق، والإعتقاد باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه الناس على ما قدموا من عمل. فإذا لامَسَ الإيمان شغاف القلوب، فسرعان ما يغير الأثرة إلى إيثار؛ إذ يعتقد الإنسان صاحب الإيمان الحق –عند ذاك– أن هناك ما هو أفضل من المال، وأفضل من الجاه، وأفضل من السلطة، وأفضل من الإعتبارات الأخرى. إنه الإيمان الحق الذي إذا انغرس في القلب، خلّص صاحبه من المطامع الصغيرة والإهتمامات التافهة التي ترتكس بالإنسان في حمأة الأرض، وتخلصه من

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: ما يتقى من فتنة المال) ص١٥٨٤ حديث ٦٤٣٦، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: لو أن لابن آدم واديين لأبتغى ثالثا) ٢/٧٢٥، حديث ١٠٤٨.

الأهداف التي لا وزن لها في ميزان العقلاء، فيحلق –عند ذاك– في آفاق واسعة، حين يؤمن بالدار الآخرة التي يحاسب الله فيها الناس على ما قدموا من عمل. وهذا المنهج هو الذي سلكه القرآن الحكيم، وسلكه النبيﷺ من أجل معالجة الشح في النفس البشرية، والترغيب في إنفاق المال في سبيل الله.

وحين نقرأ سيرة النبيﷺ نجد أن أكثر الناس تأثرا بتلاوة آيات القران هو من أُنزل عليه القرآن رسول اللهﷺ فكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وذلك من شدة تأثره بكل آية من آياته. وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن أي إنسان كان لم يمتثل ويطبق ما تدعو إليه آيات القرآن كما كان يمتثلها ويطبقها رسول اللهﷺ، ففي أمر الإنفاق في سبيل الله نقرأ قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾ سورة البقرة.

وقوله:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ﴾ سورة البقرة.

وقوله:

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ ﴾ سورة التوبة/١٠٣.

وقوله:

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ سورة البقرة.

وقوله:

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

سورة آل عمران.

وقوله:

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

سورة الحديد.

وقوله:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ سورة الحديد/١٠.

واضح من هذه الآيات الكريمات: الدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله، وأن المنفق يضاعف الله له أضعافا كثيرة، ويجزيه عليه الجزاء الأوفى يوم الدين، وإن الإنفاق في سبيل الله يطهر النفس ويزكيها فيسهل قيادها عند ذاك، وان المنزلة العالية عند الله لا ينالها إلا الذين أنفقوا مما يحبون من المال، وأن الملكية في هذه الحياة ليست بملكية حقيقية، ولكنها ملكية انتفاع فقط إذ الملكية الحقيقية لله وحده، والناس مستخلفون فيها، ولا ريب أن

المستخلفَ لا يجوز له أن يعمل إلا على وفق ما يريد المستخلِف.

ويقرأ النبي الكريم هذه الآيات وغيرها، فيدعو صحابته إلى الإنفاق في سبيل الله. وقبل أن يدعوهم اليه كان صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى في إنفاق المال –كما ذكرنا–: فكان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وقد اتخذ ذلك الترغيب من النبيﷺ صوراً عدة، منها قوله ﷺ:

«إن الصدقة تطفيء غضب الرب، وتدفع ميتة السوء»(١).

وقوله:

« ما من يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فيه إلا مَلَكَانِ يَنزِلانِ فيقول أَحَدُهُمَا اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(٢).

وقوله:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» (٣).

ومع ترغيبه ﷺ بالانفاق في سبيل الله، جاء تحذيره من الشح فقال:

«اتَّقُوا الظُّلْمَ فإن الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يوم الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ على أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»(٤).

---

(١) رواه الترمذي في السنن (باب: ما جاء في فضل الصدقة)، ص١٦٧، حديث ٦٦٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: مثل المتصدق والبخيل)، ص٤٠٢، حديث ١٤٤٢، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: في المنفق والممسك) حديث ١٠١٠.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: قول النبيﷺ: [رجل آتاه الله القرآن..])، ومسلم في كتاب صلاة المسافر وقصرها (باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه) ٥٥٨/١، رقم ٨١٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: تحريم الظلم) ١٩٩٦/٤، حديث ٢٥٧٨.

وقال:

«لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ وَلا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ »[١].

وقال:

«شر ما في الرجل شحٌّ هالع وجبن خالع»[٢].

والرسولﷺ حين تحدث بهذه الأحاديث الداعية الى الإنفاق في سبيل الله، كان قد بلغ القمة في تطبيقه لما يقول: فهو يعطي المال لمن سأله ولمن لم يسأله، لا يدخر منه شيئا. ولندع الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهيصف لنا جود رسول اللهﷺ فيقول:

(كان رسول اللَّهِﷺ أَجْوَدَ الناس وكان أَجْوَد ما يَكُونُ في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وكان يَلْقَاهُ جبريل في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حين يلقاه جبريل أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)[٣].

وحين ننظر في سنن النبي ﷺ القولية والفعلية نجد تصريحه ﷺ بالدعوة إلى الجود والندى والكرم. روى أبو ذر الغفاري هذا الحديث فقال:

---

(١) رواه النسائي في كتاب الجهاد (باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه) ١١/٦، حديث ٣١١٢

(٢) رواه ابن حبان، ينظر الإحسان بترتيب حديث ابن حبان ١٠٣/٥، حديث ٣٢٣٩، قدم له وضبط نصه : كمال يوسف الحوت، الطبعة الثانية ١٤١٧-١٩٩٦، دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب: ٥) ص٦٧، حديث ٦، ومسلم في كتاب الفضائل (باب: كان النبيﷺ أجود الناس) ص١٠٢٠، حديث ٦٠٠٩.

«كنت أَمْشِي مع النبي ﷺ في حَرَّةِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ فقال يا أَبَا ذَرٍّ: قلت: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: ما يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هذا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي منه دِينَارٌ، إلا شيئا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ إلا أَنْ أَقُولَ بِهِ في عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا عن يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ»[١].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

« كانت عِنْدَ رسول اللَّهِ ﷺ سَبْعَةُ دَنَانِيرَ وَضَعَهَا عِنْدَ عَائِشَةَ رضي الله عنها فلما كان عِنْدَ مَرَضِهِ قال: يا عَائِشَةُ اذْهَبِي بِالذَّهَبِ إلى عَلِيٍّ ثُمَّ أُغْمِيَ عليه، وَشَغَلَ عَائِشَةَ ما بِهِ حتى قال ذلك مِرَارا، كُلَّ ذلك يُغْمَى على رسول اللَّهِ ﷺ ويَشْغَلُ عَائِشَةَ رضي الله عنها ما بِهِ، فَبَعَثَ بِهِ إلى عَلِيٍّ رضي الله عنه فَتَصَدَّقَ بها وَأَمْسَى رسول اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الإثنين في حَدِيدِ الْمَوْتِ، فَأَرْسَلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها بِمِصْبَاحٍ لها إلى امْرَأَةٍ من نِسَائِهَا فقالت: اهْدِي لنا في مِصْبَاحِنَا من عُكَّكِ السَّمْنِ فإن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْسَى في حَدِيدِ الْمَوْتِ»[٢].

وعن أَنَسٍ قال: «ما سُئِلَ رسول اللَّهِ ﷺ على الإِسلامِ شيئا إلا أَعْطَاهُ قال فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بين جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ فقال يا قَوْمِ أَسْلِمُوا فإن مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الْفَاقَةَ قال أنس: إن الرجل ليسلم ما يريد إلا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا)، ص١٥٨٦. حديث ٦٤٤٤.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير ورواته ثقات محتج بهم في الصحيح ١٩٨/٦، حديث ٥٩٩٠.

الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب اليه من الدنيا وما عليها»[١].

«وعن جبير بن مطعمﷺ أَنَّهُ بَيْنَا هو مع رسول اللَّهِﷺ وَمَعَهُ الناس مُقْبِلاً من حُنَيْنٍ عَلِقَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ حتى اضْطَرُّوهُ إلى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ فَوَقَفَ رسول اللَّهِ ﷺ فقال: أَعْطُونِي رِدَائِي فَلَوْ كان عَدَدُ هذه الْعِضَاهِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً ولا كَذُوبًا ولا جَبَانًا»[٢].

وكثيرا ما كان النبيﷺيذكّر صحابته باليوم الآخر، ليسارعوا إلى طاعة الله وعمل البر؛ لأن الإنسان لا يعلم متى يأتيه أجله. فعن ابن مسعودﷺ قال:

«دخل النبيﷺ على بلال وعنده صبر من تمر فقال: ما هذا يا بلال؟ قال: أعد ذلك لأضيافك قال: أما تخشى أن يكون له دخان في نار جهنم، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا» [٣].

كانت هذه الأحاديث وغيرها قد أثرت بصحابة النبيﷺ؛ فاندفعوا ينفقون المال في سبيل الله إنفاقاً، هيهات أن نجد له نظيرا أو شبيها في أي مجتمع كان من المجتمعات قديما أو حديثا. ولم يكن انفاق المال خاصاً بالاغنياء من ذوي اليسار والثروات الكبرى، بل حتى الفقراء منهم كان ينفق ما يستطيع

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: ما سئل رسول اللهﷺشيئا قط فقال لا) ١٨٠٦/٤، حديث ٢٣١٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس (باب: ما كان النبي ﷺيعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه) حديث ص٨٠٧، ٣١٤٨.

(٣) رواه البزار باسناد حسن ٣٤٨/٥-٣٤٩، حديث ١٩٧٨ تحقيق الدكتور: محفوظ الرحمن ، الطبعة الأولى ١٤٠٩، مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم.

إنفاقه ولو كان صاحب النفقة في حاجة الى نفقته؛ لذلك نجد القران الكريم قد أثنى على الأنصار أيما ثناء فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الحشر.

وهذه الآية الكريمة تنص على هذه الصورة الوضيئة المشرقة لإيثار الأنصار؛ سخاءا وبذلا وسماحة، فقد آثروا المهاجرين على أنفسهم ولو كانوا هم في حاجة لما يبذلون. إنه القمة السامقة في الخلق والنبل[١].

ولقد ترك الإسلام الباب مفتوحا لمن أراد أن ينفق في سبيل الله، حتى لو أنفق ما يعادل شق تمرة، فلا يضيع الله إنفاقه.

ويقرأ صحابة النبي في القرآن دعوة الله عباده المؤمنين إلى إنفاق المال في سبيل الله في أساليب عديدة، ويسمعون من النبي دعوته لذلك –وهم في طبيعتهم أهل جود وكرم– وينظرون إلى التطبيق العملي لرسول الله ﷺ في السماحة والندى، فيسارعون إلى البذل والسخاء، ويشهد المجتمع الإسلامي الأول من بذل المعروف حتى صار مضرب الأمثال في المجتمعات الأخرى، وهذه أمثلة قليلة على ذلك:

---

(١) لزيادة الإطلاع ينظر: في تفسير الآية كتابنا: صور من صحابة رسول الله في القرآن والسنة ص ٦٩-٧٦، الطبعة الأولى ١٤٣١-٢٠١٠، مطبعة أنوار دجلة، بغداد.

١- طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه[١]

قالت سعدى بنت عوف المرية زوجة طلحة بن عبيد الله (دخلت على طلحة ذات يوم فقلت: ما لي أراك حزيناً أرابك شيء من أهلك فنعتب(أي نترضاك) قال: نعم حليلة المرء أنت؛ ولكن عندي مال قد أهمني أو غمني قالت: اقسمه؛ فدعا جاريته فقال: ادخلي عليَّ قومي، فأخذ يقسمه. فسألها (راوي الحديث) كم كان المال؟ فقالت: أربعمائة ألف)[٢].

والمتأمل في هذه الواقعة يرى البذل والسخاء قد وصل قمته لدى هذا الصحابي، حتى صار كثرة المال لديه حزنا عليه، ولم ينجل الغم والحزن عن نفسه إلا بعد أن قام بتفريقه بين قومه.! فأية منزلة في بذل المال وصل هذا الصحابي الجليل؟!

كما تدل هذه الواقعة على التربية العالية في البذل والسخاء التي تربت عليها الصحابيات، فهي تعين زوجها على الجود والندى.

وعن الحسن البصري (أن طلحة بن عبيد الله باع أرضا له من عثمان بن عفان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فلما جاء بها قال: إن رجلا تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله! فأرسل رسله في

---

(١) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمر القرشي التيمي: صحابي جليل، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. أسلم على يد أبي بكر الصديق، فكان من السابقين إلى الإنضواء تحت راية الإسلام، وقد أوذي في سبيل الله، وهاجر إلى المدينة المنورة، وكان تاجرا من كبار التجار، وذا ثروة واسعة، ويضرب به المثل بسماحته وإنفاقه المال في سبيل الله.

(٢) الطبقات الكبرى لإبن سعد ٢٠١/٣ طبعة الخانجي.

سكك المدينة يوزعها حتى أسحر وما عنده منها درهم)[١].

تدل هذه الرواية على حقيقة اعتقادهرضي الله عنه باليوم الآخر، وأن الموت أقرب إلى الانسان من شراك نعله، فهو يخشى أن يموت وفي بيته هذا المال؛ لذلك ظل ساهرا الليل، ولم تغمض له عين حتى أنفق ذلك المال؛ لأنه كان يعتقد أن متاع الدنيا –مهما كثر– فهو قليل، وأن ما عند الله خير وأبقى.

وعن قبيصة بن جابر قال:

(ما رأيت أحدا أعطى لجزيل مال من غير مسألة من طلحة بن عبيد الله)[٢] وهذا من أعلى مستويات البذل في سبيل الله. فهو لا ينتظر من الناس أن يسألوه ليعطيهم، بل كان يبادرهم بالعطاء من غير أن يسألوه، وقد كان بهذا مقتديا برسول اللهصلى الله عليه وسلم فكان يعطي الناس من غير أن يسألوه.

وقال الذهبي:

(أتى طلحة مال من حضرموت سبع مائة ألف، فبات ليلته يتململ فقالت له زوجته: مالك؟ قال: تفكرت منذ الليلة فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين انت عن بعض أخلائك، فإذا اصبحت فادع بجفان وقصاع فقسّمه، فقال لها: رحمك الله إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح دعا بجفان فقَسَّمها بين المهاجرين والأنصار فبعث إلى علي منها بجفنة فقالت له زوجته: أبا محمد، أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي. قالت: فكانت صرة

---

(١) الطبقات الكبرى لإبن سعد ٣/٢٠١-٢٠٢ طبعة الخانجي.

(٢) الطبقات الكبرى لإبن سعد ٣/٢٠٢، طبعة الخانجي.

فيها نحو ألف درهم)[١].

(وجاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألني بها أحد قبلك، إن لي أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلاث مئة ألف، فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن؛ فأعطاه)[٢].

فلا نعجب إذا علمنا ما حازه من ألقاب وأوصاف من رسول الله ﷺ، إذ سماه (طلحة الخير) و (طلحة الفياض) و (طلحة الجود)؛ وذلك لجوده وإسراعه في فعل الخير. وهذا أثر من آثار رسول الله ﷺ في تربيته لأصحابه، وينطبق عليه ما قاله بعض الشعراء يمتدح واحدا من الأجواد:

تعوَّد بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله
هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[٣]

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٣٠-٣١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٣٠.

(٣) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث القرشي الزهري: صحابي جليل، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإنضواء تحت لواء الإسلام، أسلم على يد أبي بكر الصديق قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ثمَّ إلى المدينة، وشهد بدرا وسائر الغزوات، وآخى النبي بينه وبين سعد بن الربيع في المدينة، وقد استخلفه عمر بن الخطاب سنة ولي الخلافة على الحج، وأثنى عليه فقال: (عبد الرحمن

عن الزهري: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة[1].

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال:

(باع عبد الرحمن بن عوف أرضا له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك المال في بني زهرة، وفقراء المسلمين، وأمهات المؤمنين، وبعث إلى عائشة معي بمال من ذلك المال؛ فقالت: عائشة أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يحنو عليكم بعدي إلا الصالحون**» سقا الله ابن عوف من سلسبيل الجنة)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خيركم خيركم لأهلي من بعدي. قال: فباع عبد الرحمن بن عوف حديقة باربعمائة الف فقسمها في أزواج النبي ﷺ»[3].

وأوصى عبد الرحمن بن عوف لمن شهد بدرا باربعمائة دينار، فكانوا مائة رجل[4].

سيد من سادات المسلمين) الإصابة ٣٤٨/٤، وكان آية من آيات الله بالسماحة والندى والجود والإنفاق في سبيل الله. مات سنة إحدى وثلاثين، وقيل اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٣٤٧، والحلية لأبي نعيم ٩٩/١

(٢) حلية الأولياء ٩٨/١-٩٩.

(٣) أخرجه ابن ابي عاصم في السنة ٦١٦/٢ تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني حديث ١٤١٤، الطبعة الأولى،١٤٠٠، المكتب الإسلامي بيروت.

(٤) التاريخ الكبير للإمام البخاري ١٦٧/١، حديث ٤٩٩، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، لبنان.

تدل هذه الروايات –وغيرها كثير– على الروح العالية التي كان يتمتع بها هذا الصحابي: فقد أنفق ما أنفق من ماله في عهد رسول الله ﷺ وبعد مماته –أيضا– ولم ينسَ أزواج النبي، فكان يغدق المال عليهن بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه، ولم ينسَ –أيضا– إخوانه ممن شهدوا غزوة بدر فكان يصلهم، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.!

رضي الله عن عبد الرحمن بن عوف، فقد صحب النبي فأحسن الصحبة، ونال كل شرف وفخر حين عدّه النبي ﷺ من العشرة المبشرين بالجنة.!.

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها(١)

عن أم ذرّة – وكانت تغشى عائشة– قالت:

(بعث إليها ابن الزبير بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة، فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم. فلما أمست قالت: يا جارية، هلمي فطري، فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه؟ فقالت: لاتعنفيني؛ لو كنت ذكرتني لفعلت)(٢).

---

(١) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة (عثمان بن عمر) القرشية التيمية، زوج النبي ﷺ، لم ينكح بكرا غيرها، عاشت في بيت النبوة ثمانية أعوام وخمسة أشهر، وكانت أفقه وأعلم الناس في عصرها، روت عن النبي ﷺ ٢٢١٠ من الأحاديث، وكانت على دراية بعلل الأحكام أثنى عليها الصحابة والتابعون، فقال أبو موسى الأشعري: (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) رواه الترمذي، تحفة الأحوذي ٣٥٤/١٠، حديث ٣٨٩٢.

(٢) صفة الصفوة لأبن الجوزي ٢١/٢-٢٢.

وعن عروة بن الزبير قال: (لقد رأيت عائشة تقسم سبعين الفا وهي تُرقِّع درعها)[1].

وقال ابن الزبير : (ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف، أما عائشة، فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء فكانت لا تدخر شيئا لغدٍ)[2].

وبلغ الإمام مالك عن عائشة زوج النبيﷺ: (ان مِسْكِينًا سَأَلَهَا وَهِيَ صَائِمَةٌ، وَلَيْسَ في بَيْتِهَا الا رَغِيفٌ؛ فقالت لِمَوْلاَةٍ لها: أَعْطِيهِ إِيَّاهُ. فقالت: ليس لَكِ ما تُفْطِرِينَ عليه. فقالت: أَعْطِيهِ إِيَّاهُ. قالت: فَفَعَلْتُ. قالت: فلما أَمْسَيْنَا أَهْدَى لنا أَهْلُ بَيْتٍ أو إِنْسَانٌ ما كان يهدي لنا شَاةً وَكَفَنَهَا، فَدَعَتْنِي عَائِشَةُ فقالت: كُلِي من هذا، هذا خَيْرٌ من قُرْصِكِ)[3]. وهذه فضيلة من فضائل أم المؤمنين عائشة، تُقبل عليها الدنيا، وتنهال عليها الأموال من هنا وهناك، فتقوم بتوزيعها على المستحقين لها لا تدخر منها أي شيء كان، إذ كانت زاهدة بالدنيا غير متطلعة لشيء من مباهجها ، وقد آثرت أن تعيش بعد موت النبيﷺكما عاشت في عهده: لا تأكل الطيب من الطعام، ولا تلبس الجديد من الثياب، ولا تهتم بأمر كاهتمامها بتوزيع ما يردها من أموال إلى المستحقين لها. وفوق ذلك، فكانت تؤثر السائل بالرغيف الواحد الذي أعدته لفطرها! فرضي الله عنك يا أم المؤمنين.!

---

(١) صفة الصفوة ٢٢/٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٩٢/٢.

(٣) الموطأ للإمام مالك –رواية يحيى بن يحيى الليثي– ٥٩٦/٢.

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[1]

كان لعبد الله بن عمر غلام (رقيق) فكاتبه ابن عمر،–أي تعهد له بعتقه من الرق– إذا دفع إليه أربعين الف درهم. فخرج إلى الكوفة فكان يعمل على حُمُر له، حتى جمع من عمله خمسة عشر ألفا، فجاء إنسان فقال: أمجنون أنت؟ أنت ها هنا تعذب نفسك، وابن عمر يشتري الرقيق يمينا وشمالا ثم يعتقهم، ارجع إليه فقل: عجزت. فجاء الغلام بصحيفته التي تعاقد فيها إلى ابن عمر وقال له: يا أبا عبد الرحمن، قد عجزت، وهذه صحيفتي فامحها. فقال: لا، امحها أنت إن شئت، فمحاها، ففاضت عينا عبد الله وقال: اذهب فأنت حر. قال أصلحك الله، أحسن إلى ابنيَّ. قال: هما حران. قال: أصلحك الله، أحسن إلى أُمِّي ولديّ. قال: هما حُرتان[2].

وكان لابن عمر –ايضا– غلام اسمه (نافع)،وقد صار –فيما بعد– من أئمة التابعين، وقد أراد ابن جعفر أن يشتري منه نافعا بعشرة الآف درهم أو بألف دينار ذهبا، فدخل عبد الله على زوجته صفية بنت عبيد وقال لها: أعطاني ابن جعفر بنافع عشرة آلاف درهم أو الف دينار؛ فقالت: يا أبا عبد الرحمن، فماذا تنتظر أن تبيع؟! قال: فهلا ما هو خير من ذلك؟ هو لوجه

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي. ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية، وهاجر إلى المدينة وعمره عشر سنين. وعرض على النبي ﷺ يوم بدر فاستصغره، ثم بأحد فاستصغره –أيضا– وسمح له بالقتال يوم الخندق وعمره خمسة عشر سنة. وقد عرف بالصلاح منذ نعومة أظفاره، حتى قال سعيد بن المسيِّب: (لو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لأبن عمر) الإصابة ١٨٤/٤ ، توفي رضي الله عنه سنة أربع وثمانين. ينظر: الإصابة ١٨١/٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١٧/٣.

الله ﷻ[1].

وقال نافع: (إن كان ابن عمر ليقسم في المجلس الواحد ثلاثين ألفا، ثم يأتي عليه شهر ما يأكل فيه مزعة لحم)[2].

وقال نافع: (ما مات ابن عمر حتى أعتق الف إنسان أو زاد)[3].

وقال نافع: (مرض ابن عمر فاشتهى عنبا أول ما جاء، فأرسلت امرأته بدرهم فاشترت به عنقودا، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. ثم بعثت بدرهم آخر، قال فاتبعه السائل. فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه، وأرسلت صفية (زوجة ابن عمر) إلى السائل تقول: والله لئن عدت لا تصيب مني خيرا، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به)[4].

بين أبي عبيدة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما

وهذه صورة مشرقة اخرى تفصح عما كان عليه الصحابة من البذل والسخاء وحب انفاق المال في سبيل الله، يمثلها صحابيان اثنان هما: أبو عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما- فقد أخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلبث ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع؟ فذهب بها الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك؛ فقال:

---

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ١٧٥-١٧٦ وسير أعلام النبلاء ٢١٧/٣.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٩٦/١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١٨/٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٢٠/٣.

وصله الله ورحمه! ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر رضي الله تعالى عنه وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع؟ فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله! تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن –والله– مساكين فأعطنا – ولم يبق في الخرقة إلا ديناران– فدحا بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره؛ فسرَّ بذلك وقال: إنهم أخوة بعضهم من بعض)[1].

وبعد

فهذا هو منهج صحابة النبيﷺ في إنفاق المال، فقد حققوا فيه معنى الأخوة الحقيقية التي ذكرها الله في قرآنه فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ سورة الحجرات/١٠. وذكرها رسول اللهﷺ فقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2].

وقد فهم هذه الحقيقة صحابة النبي، فكان الواحد منهم أسعد ما يكون حين يمد لإخوته يد العون بما يمتلكه ليغنيهم؛ لذلك كان المجتمع الإسلامي

---

(١) حلية الأولياء ٢٣٧/١.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) حديث ٢٥٨٦، ١٩٩٩/٤.

الأول مجتمعا فريدا في كل جانب من جوانب الحياة. فلم تكن الدنيا لدى الواحد منهم إلا جسرا للآخرة؛ إذ النعيم نعيمها والخير خيرها.

اللهم حبب الينا الإنفاق في سبيلك، واجعلْ ما عندك أحب الينا مما عندنا، فنحن نؤمن بقولك الكريم: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾سورة النحل/٩٦.

□

الجهاد في سبيل اللّه

مقدمة

إذا كان المسلم قد وجب عليه أن يربي نفسه على الخلق القويم، ويهذبها بالصلاة والصيام وقيام الليل وذكر الموت، ويزكيها بإنفاق ماله في سبيل الله، وإصلاح مجتمعه حسب قدرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ هناك واجبا آخر عليه هو أصل أصيل في الإسلام: إنّه واجب الجهاد في سبيل الله بشروطه وأركانه، وقد ورد النص بوجوبه في القرآن في آيات عديدة، نذكر قسما منها فيما بعد إن شاء الله.!

تعريف الجهاد في اللغة والاصطلاح

أمّا في اللغة، فالجهاد مصدر جاهد، وهو من الجهد –بفتح الجيم وضمها– أي الطاقة والمشقة، وقيل: الجهد –بفتح الجيم–: المشقة، وبالضم الطاقة[١].

وفي الاصطلاح: قتال المسلمين الكفار من غير المعاهدين، بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم؛ إعلاءا لكلمة الله[٢].

يتبين من هذين التعريفين اللغوي والاصطلاحي، أنّ المراد بالجهاد هو استفراغ الوسع في قتال العدو، ولا يكون إلا في سبيل الله؛ لتحقيق الخير للأفراد والمجتمعات.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، تاج العروس للزبيدي، مادة جهد.

(٢) فتح القدير للكمال بن الهمام ٢٧٧/٤، وشرح الزرقاني على الموطأ ٢٨٧/٢.

أثر الجهاد في إدخال الأمم في الإسلام

ولقد كان للجهاد في سبيل الله أثره الواضح في إدخال أمم وشعوب في هذا الدين، كان قد حيل بينها وبينه من قبل، وذلك باضطهاد وتعذيب كل من يريد الانضواء تحت راية الإسلام. فقد أزاح الجهاد في سبيل الله هذه العقبات، وترك للناس حريتهم في اختيار ما يريدون من عقائد؛ لأنّ قضية الدين قضية قناعة، فلا يجبر أحد على الدخول فيه، وهذا ما نصّ عليه القرآن الكريم، وما نصّ عليه رسول الله ﷺ وطبقه خير تطبيق، قال الله تعالى:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ سورة البقرة/٢٥٦.

وقال:

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ سورة الكهف/٢٩.

وقال:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾

سورة الكافرون.

ولمّا جاء صحابي من الأنصار إلى النبي ﷺ، وأراد أن يُكره ولديه على الإسلام –وقد كانا تنصرا قبل مبعث النبي ﷺ– فنهى النبي الأنصاري عن ذلك[1].

وحين نتأمّل بتشريع الجهاد، نرى أنّه أسلوب من أساليب تبليغ دعوة الله

---

(١) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للحسين بن مسعود (البغوي) تفسير قوله تعالى (لا إكراه في الدين).

إلى الناس، وحماية المسلمين في كل مكان، وردٌ لعدوان المعتدي على ديار المسلمين، وقد اتفق الفقهاء والأصوليون والمفسرون والمحدثون على أنّ العدو إذا دخل أرضا إسلامية، فإنّ واجبا حتما على أهل ذلك البلد أن يقوموا بصدّهم وإخراجهم منها، فإن قصّروا أو لم يستطيعوا ذلك انتقل فرض العين إلى من يليهم. وهكذا حتى يعم فرض العين الأرض كلها، فيخرج الولد من غير إذن والده إلى الجهاد، وتخرج المرأة من غير إذن زوجها؛ ذلك لأنّ الجهاد هو ذروة سنام الإسلام. وقد ثبت بما لا يقبل الشك أنّ المسلمين يظلون أقوياء ما لم يعطلوا هذه الشعيرة، فإن عطّلوها أصابهم الذل وحل بهم غضب الله، ويُعد تعطيل هذه الشعيرة كبيرة من الكبائر. وقد قال أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل... فوالذي نفسي بيده ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا)[1].

---

(١) الكامل في اللغة والأدب، تأليف: أبي العباس المبرد ١٦/١ بتحقيق: جمعة الحسن، الطبعة الأولى ١٤٢٥-٢٠٠٤، دار المعرفة، بيروت.

الجهاد في القرآن الكريم

ونقرأ القرآن الكريم، فنرى فيه آيات كثيرة داعية إلى الجهاد في سبيل الله، منها قوله تعالى:

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة النساء.

وقوله:

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ سورة التوبة/٤١.

وقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة المائدة.

وقوله:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة التوبة.

وحذّر الله تعالى من التثاقل عن الجهاد فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى

﴿ ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة التوبة.

ومدح الله المجاهدين في سبيله فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ سورة البقرة.

وقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة الأنفال.

وتوجه خطاب الله تعالى –أيضا– إلى رسوله محمدﷺ فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ سورة التحريم.

الجهاد في الحديث النبوي

وبعد نزول آيات الجهاد، نرى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه يحض صحابته عليه، ويرغبهم به بأحاديث كثيرة، منها قولهﷺ:

«والذي نفسي بيده، وددتُ أني لأقاتل فى سبيل الله، فأقتل، ثم أُحيا ثم أُقتَل، ثم أُحيا، ثم أُقتل،..»[1].

والمعروف أن منزلة النبوة هي أعظم من منزلة الشهادة في سبيل الله. ويأتي قَسَمُ النبيﷺ هنا؛ ليبين المكانة العظمى التي يتبوأها الشهداء عند الله.

ويتحدث النبيﷺ عن الكرامة التي ينالها الشهيد في سبيل الله فيقول:

«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد: يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة»[2].

واذا كان كل ميت يختم على عمله ويجازى به، فان المرابط في سبيل الله ليس كذلك، فلا يختم على عمله، بل ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر، فقالﷺ:

«كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً فى سبيل الله، فإنه ينمى

---

(١) رواه البخاري في كتاب التمني (باب: ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة) ص١٧٥٢، حديث ٧٢٢٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: تمني المجاهد أن يرجع الى الدنيا) ص٧٣٢، حديث ٢٨١٧. ومسلم في كتاب الإمارة (باب: فضل الشهادة في سبيل الله) ١٤٩٨/٣، حديث ١٨٧٧.

له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر»[١].

والجهاد في سبيل الله أعظم عمل يتقرب به المسلم إلى الله بعد الإيمان بالله. فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: سئل النبيﷺ أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[٢].

وقال:

«مثل المجاهد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله – كمثل الصائم القائم، وتوكَّلَ الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يُدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة»[٣].

وقال:

«إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض...»[٤].

ومن ترغيب النبيﷺ للمسلم على عقد نية الشهادة في سبيل الله قوله:

«مَنْ سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على

---

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد (باب: ما جاء في فضل مَنْ مات مرابطاً) ص٣٨٢، حديث ١٦٢١.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحج (باب: فضل الحج المبرور) ص٤٢٣، حديث ١٥١٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله) ص٧٢٥، حديث ٢٧٨٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب: درجات المجاهدين في سبيل الله) ص٧٢٦، حديث ٢٧٩٠.

فراشه»[1].

وحذّر النبيﷺ مَنْ مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو فقال:

«مَنْ مات ولم يغز، ولم يحدِّث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»[2].

الرسول المجاهد

لم يجاهد أحد قط كجهاد رسول اللهﷺ: فقد كان يرسل السرايا، ويجهز الغزوات التي يقودها بنفسه، فقاد بنفسه ٢٨ غزوة خلال سبع سنوات، وأدار صلوات الله وسلامه عليه (معركة حنين) لما انهزم المسلمون بعشرة من أصحابه وأهل بيته، بعد أن فرّ اثنا عشر ألفاً من المسلمين، ووقف النبي وسط المعركة يناشد المسلمين العودة الى ميدان الجهاد، وكان يدل الناس على نفسه ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، وهذا منتهى الشجاعة؛ فعاد المسلمون إلى ميدان المعركة، وغيَّرَﷺ مسيرتها من الهزيمة الى النصر.

وكان ثباته صلوات الله وسلامه عليه في غزوة الأحزاب آية من آيات الله، لايقدر عليه غيره: فقد صمد أمام عشرة آلاف مقاتل من المشركين، وكان عدد المسلمين زهاء ثلاثة آلاف مجاهد، وتحرَّج موقف النبيﷺ لما نكثت قريظة عهدها مع رسول اللهﷺ، فصار المسلمون يواجهون عدوين: عدواً خارجياً يتمثل بالأحزاب، وعدواً داخلياً يتمثل في بني قريظة الذين نكثوا عهدهم

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى) ١٥١٧/٣، حديث ١٩٠٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى) ١٥١٧/٣، حديث ١٩١٠.

معه، وخرج النبيﷺ من ذلك كله منتصراً بنصر الله..!!.

لقد كانﷺ المجاهد الذي لا مثيل له في دنيا الجهاد: شجاعة، وثباتاً، وقوة قلب، فقد خاض المعارك الكثيرة وصبر فيها حتى انجلت عن ظفر أو دفاع، ولم يدخل في نفسه شئ من الخوف أو الفزع أو الهلع، ولم يفكّر بهرب في غزوة من غزواته، فقد كان أشجع الناس، ووصفه أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالبرضي الله عنه في غزوة بدر فقال:

(لما كان يوم بدر، وحضر البأس، إتقينا برسول اللهﷺ، وكان من أشدّ الناس بأساً يومئذ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه)[١].

وقال البراء بن مالكرضي الله عنه:

(كنا–والله–اذا احمرَّ البأس نتقي به–أي برسول اللهﷺ–وإن الشجاع منا للذي يحاذي به)[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٣.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير (باب: في غزوة حنين) ٣/١٤٠١، حديث ١٧٧٦.

الصحابة المجاهدون

قرأ الصحابة آيات القرآن الداعية الى الجهاد في سبيل الله، وسمعوا أحاديث النبيﷺ في ذلك، ورأوا بأمّ أعينهم جهاده عليه الصلاة والسلام في ذلك.. رأى الصحابة من نبيهم هذا؛ فانطلقوا يجاهدون جهاداً أذهَلَ كلَّ من دَرَس حياتهم: فقد رفعوا راية التوحيد، وبذلوا دماءهم من أجل نصرة هذا الدين، فكانوا–بحق–فرسان هذا الدين، وقدوة لكل جيل يأتي بعدهم. وهذه أمثلة على ذلك ترينا كيف كان حب الصحابة للجهاد، وشوقهم للشهادة في سبيل الله:

الزبير بن العوامرضي الله عنه

الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد القرشي، حواري رسول اللهﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وقد تحّملَ الكثير من العذاب لما أسلم، فكان عمه يعلقه في حصير ويدخن عليه ليرجع الى الكفر فيقول: لا أكفر أبداً[1]. وقد صار فارس النبي الكريم، وقال فيه علي بن أبي طالبرضي الله عنه: أشجع الناس الزبير **(يغضب غضب النمر، ويثب وثوب الأسد)**[2].

وقال فيه عمر بن الخطابرضي الله عنه:**(إن الزبير ركن من أركان الدين)**[3].

هاجر الزبير الهجرتين، واشترك في كل غزوة غزاها النبيﷺ. وفي غزوة بدر قَتَلَ عبيدة بن سعيد بن العاص–وكان عبيدة بطلاً في قوته وقتاله–وأبلى يوم أحد بلاءاً حسناً، وقاتل صناديد الكفر قتالاً شديداً، وهكذا الأمر في غزوة الخندق وفتح مكة، والغزوات كلها. وظل بعد وفاة النبيﷺ يجاهد كما كان

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة ٥٥٤/٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٣٨٥/١٨.

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة ٥٥٦/٢.

يجاهد في عهده عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير متحدثاً عن جهاده في معركة اليرموك:

(وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحملُ فنحملَ معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا، وأقدَم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه.

ثم جاؤا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الاولى، وجُرِح يومئذ جرحين بين كتفيه، وفي رواية جرح)[1].

وقد كانت شجاعة الزبير السبب المهم في فتح مصر وانتصار المسلمين على (المقوقس) ذلك أن عمرو بن العاص بقي محاصراً حصن بابليون مدة من الزمن، فلما جاء الزبير مدداً له في اثني عشر ألفاً قال: (إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين). فوضع سُلّمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف، فتحامَلَ الناس على السلّم حتى نهاهم عمرو؛ خوفا من أن ينكسر، فلمّا رأى الروم أن العرب ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابه للمسلمين،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧/١١.

فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر[1].

ولما أراد عمر بن الخطاب أن يوليه مصر قال له الزبير:

(لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهداً، وللمسلمين معاونا: فإن وجدتُ عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به، وإن وجدته في جهاد كنت معه؛

فسار على ذلك)[2].

رضي الله عن حواري رسول اللهﷺ!

ومدح حسان بن ثابت الزبير بن العوام فقال:

أقـامَ على عهـدِ النبيّ وهـديـهِ	حواريـهُ والقولُ بـالفعـلِ يعـدلُ
أقـامَ علـى منـهـاجـهِ وطـريقـهِ	يُوَالي وَليَّ الحقِّ ، والحقُّ أعـدَلُ
هُوَ الفارِسُ المشـهورُ والبطلُ الذي	يَصُـولُ ، إذا ما كانَ يوْمٌ مُحَجَّلُ
إذا كشَفَتْ عن ساقِها الحرْبُ حشّها	بأبْيَضَ سـبّاقٍ إلى المَوْتِ يُرْقِلُ
وإنّ امْرَأً كـانَـتْ صَـفِيّـةُ أُمَّـهُ	ومنْ أسـدٌ في بيتهـا لمرفـلُ
لَـهُ من رَسُـولِ اللَّهِ قُرْبَى قَريبَـة	ومن نُصـرَةِ الإسـلامِ مَجدٌ مؤثَّلْ
فكمْ كربـةٍ ذبّ الزبيرُ بسـيفـهِ	عن المُصْطفى واللَّهُ يُعطي فيُجزلُ

---

(١) ينظر: صلاح الامة في علوّ الهمة تأليف الدكتور سيد بن حسين العفاني ص٣٢٣، الطبعة الثانية ١٤٢٧-٢٠٠٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، نقلاً عن قادة فتح الشام ومصر تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب ص٢٠٩، ٢٢٧، دار الفكر.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص٢١٤، عني بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩.

فمـا مثلـهُ فيهمْ ، ولا كـانَ قبلـه وليْسَ يَكُونُ الدّهرَ ما دامَ يذْبُلُ
ثناؤكَ خيرٌ من فعالِ معاشرٍ وفعلكَ، يا ابن الهاشميةِ، أفضلُ(١)

طلحة بن عبيد اللهﷺ

فضائل أبي بكر الصديق كثيرة، ومنها: إسلام طلحة بن عبيد الله على يديه، فقد أخلص دعوته لله ورسوله، وجاهد في الله حق الجهاد، حتى شهد لهﷺ بأنه واحد من العشرة المبشرين بالجنة. وهذه مقتطفات عن حياته الجهادية:

أبلى طلحة بلاءاً حسناً في (غزوة أُحد): ضرباً بالسيف، ورمياً بالنبل، ودفاعاً عن النبيﷺ، وقد وقى النبيَّ بنفسه، واتقى النبل عنه بيده حين توجهت إليه ضربة آثمة من المشركين، فَشُلّت اصبعه، وقد قال قيس بن أبي حازم: (رأيت يد طلحة التي وقى بها النبيﷺ قد شلت)(٢).

أمّا الجراحات التي أصابته، فوصلت إلى أربع وعشرين جراحة، وقد قال النبيﷺ حينذاك: (أوجَبَ طلحة)(٣).

ويصعب الأمر في (أحد) على النبيﷺ ومن معه، بعد أن أقدم المشركون نحو النبيﷺ يبغون قتله، وقُتل من الصحابة المدافعين عنه من قُتل حتى لم

---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص ٣٣٩، وضعه وضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة السعادة، القاهرة.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ (باب: ذكر طلحة بن عبيد الله) ص٩٤٤، حديث ٣٧٢٤.

(٣) رواه الترمذي في (باب: مناقب أبي محمد طلحة بن عبيد الله) ص٣٩٥ و٨٤٦، حديث ٣٧٣٨ و١٦٩٢، وهو حديث حسن، ومعنى (أوجب طلحة) أي وجبت له الجنة.

يبق معه في نهاية المطاف إلا طلحة وسعد بن أبي وقاص[1].

ويروي النسائي هذا الحديث عن جابر بن عبد اللهﷺ فيقول:

(لما كان يوم أحد، وولى الناس، كان رسول اللهﷺ فى ناحية فى اثني عشر رجلا من الأنصار، وفيهم طلحة بن عبيد الله، فأدركهم المشركون، فالتفت رسول اللهﷺ وقال: «من للقوم؟». فقال طلحة: أنا! قال رسول اللهﷺ: «كما أنت»، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله! فقال: «أنت»؛ فقاتل حتى قُتل! ثم التفت فإذا المشركون فقال: «من للقوم؟». فقال طلحة: أنا. قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار أنا. فقال: «أنت». فقاتل حتى قُتل، ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج إليهم رجل من الأنصار فيقاتل قتال من قبله، حتى يُقتل، حتى بقي رسول اللهﷺ وطلحة بن عبيد الله، فقال رسول اللهﷺ: «من للقوم؟». فقال طلحة أنا. فقاتل طلحة قتال الأحَدَ عشر حتى ضُربت يده، فقطعت أصابعه، فقال حسِّ! فقال رسول اللهﷺ «لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون». ثم رد الله المشركين)[2].

وروى ابن سعد عن عائشة وأم إسحاق قالتا:

(جُرح أبونا يوم أحد أربعاً وعشرين جراحة، وقع منها في رأسه شجّة مربعة، وقطع نساه -يعني العرق-، وشلت أصبُعه، وكان سائر الجراح في جسده، وغلبه الغشي، ورسول اللهﷺ مكسورة رباعيته، مشجوج في وجهه، قد علاه الغشي، وطلحة مُحتملُهُ، يرجع به القهقرى، كلما أدركه أحد من

---

(١) رواه البخاري في (باب: ذكر طلحة بن عبيد الله) ص٩٤٤، حديث ٣٧٢٢ و٣٧٢٣.

(٢) سنن النسائي (باب: ما يقول من يطعنه العدو) ص٤٨٦، حديث ٣١٤٩.

المشركين، قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب)[1].

ولقد كان أبو بكر الصديقرضي الله عنه معجبا أشد الإعجاب بجهاد طلحة في هذه الغزوة، فكان إذا ذُكر يوم أحد يقول: ذلك يوم كان كله لطلحة. ولقد قيل في طلحة:

وطلحة يوم الشعب آسى محمدا ... لدى ساعة ضاقت عليه وسُدّت
وقاه بكفيه الرماح فقُطّعت ... أصابعه تحت الرماح فشُلّت
وكان إمام الناس بعد محمد ... أقرّ رحا الإسلام حتى استقرّت

رجل من الأنصاررضي الله عنه

هناك عدد غير قليل من الصحابة فارقوا هذه الحياة في ساحات الجهاد أو في بيوتهم، ولم يكتب التاريخ شيئا عن سيرتهم، من هؤلاء رجل من الأنصار، عُرف بشهامته ونجدته وغيرته وجهاده في سبيل الله، وإذا كان التاريخ لم يعرف هؤلاء، فإنّ الله تعالى يعرفهم. فقد روى ابن الجوزي: (عن جعفر بن عبد الله بن أسلم قال: لمّا كان يوم اليمامة واصطف الناس، كان أوّل من جُرح أبو عقيل: رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن له شِقّه الأيسر، في أول النهار وجُرّ إلى الرحل، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، -وأبو عقيل واهِن من جرحه- ، سُمع معن بن عدي يصيح: يا للأنصار، الله الله والكرّةَ على عدوكم، قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد؟ ما فيك قتال. قال: قد نوَّه المنادي باسمي، قال ابن عمر: فقلت له: إنما يقول: يا للأنصار،

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٢/١.

ولا يعني الجرحى. قال أبو عقيل: أنا من الأنصار، وأنا أجيبه -ولو حبواً- قال ابن عمر: فتحزّم أبو عقيل، وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: يا للأنصار، كرّةً كيوم حُنين؛ فاجتمعوا -رحمكم الله- جميعاً، تقدموا ... قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت إلى الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً، كلها قد خلصت إلى مقتل، وُقتل عدو الله مسيلمة، [قال ابن عمر:] فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت: يا أبا عقيل، قال: لبيك -بلسان ملتاث-: لمن الدبرة؟ قلت: أبشر، قد قُتل عدو الله؛ فرفع اصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات يرحمه الله. قال ابن عمر: فأخبرت عمر، بعد أن قدمت خبره كله. فقال: رحمه الله! ما زال يسعى للشهادة ويطلبها، وإن كان -ما علمت- من خيار أصحاب نبيناﷺ وقديم إسلامهمرضي الله عنه)[1].

النعمان بن مقرن المزنيرضي الله عنه

النعمان بن مقرن المزنيرضي الله عنه: عظيم من عظماء صحابة النبيﷺ. حمل لواء قومه يوم فتح مكة، وكان مجاب الدعوة، وصار أميرا على جيش المسلمين الذي فتح (نهاوند) في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطابرضي الله عنه، واستشهد النعمان في هذه المعركة.

وتُعد (معركة نهاوند) التي وقعت بين العرب والفرس (فتح الفتوح)؛ إذ قضت على طغيان الفرس، ولم تقم لامبراطوريتهم بعدها قائمة. لقد كانت أعداد الفرس مائة وخمسين ألف مقاتل، وأمّا المسلمون بقيادة (النعمان بن

(١) صفة الصفوة ١/٤٦٦-٤٦٧.

مقرن) فكان عددهم ما يقرب من ثلاثين ألف مجاهد. وقبل أن ينشب القتال سار النعمان (في الناس، ووقف على كل راية يذكّرهم ويحرضهم ويمنّيهم الظفر، وقال لهم: إني مكبّر ثلاثاً، فإذا كبرت الثالثة، فإني حامل –إن شاء الله– فاحملوا، وإن قُتلتُ فالأمير بعدي حذيفة، فإن قُتل ففلان، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة. ثم قال: اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك. وقيل: بل قال: اللهم إني أسألك أن تقرّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيداً. فبكى الناس. ورجع إلى موقفه، فكبر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال، وحمل النعمان والناس معه، وانقضّت رايته انقضاض العقاب، والنعمان معلّم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها، وما كان يُسمع إلا وقع الحديد، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً، وانهزم الأعاجم ... فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً)[١].

ويُروى أنّ أحد الجنود جاء (النعمان) وما زال به رمق، فاستحضر ماءا ليغسل به وجه القائد الجريح، ويسأله (النعمان): من أنت؟ فقال الجندي: معقل بن يسار. وعاد يسأله: ما فعل الله بالناس؟ فقال معقل: فتح الله على المسلمين. وابتسم النعمان مع آخر أنفاسه وآخر كلماته وقال: (الحمد لله كثيرا..اكتبوا بذلك إلى عمر).

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤١٦/٢–٤١٧ تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الرابعة ١٤٢٤–٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

أسيد بن حضيرﷺ ونماذج من الأنصار

أسيد بن حضير: صحابي جليل من الأنصار، أسلم على يد مصعب بن عمير، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يُلحق في الفضل، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر)[١]، وكان أبو بكر لا يُقدّم أحدا من الأنصار عليه. وهذا موقف واحد من مواقفهﷺ، ترينا عظمة الرجل، وعظمة إخوانه من الأنصار كيف تكون.

لقد كانت الخسارة التي لحقت بالمسلمين في غزوة أحد كبيرة كبيرة؛ إذ قُتل من الصحابة زهاء السبعين، وجُرح منهم الكثير. وسمع النبيﷺ بما عزم عليه المشركون من الإغارة على المدينة مرة أخرى ليستأصلوا المسلمين بعد أن أحرزوا ذلك النصر. فندب النبيﷺ من اشترك في غزوة أحد من الصحابة إلى ملاحقة المشركين. وسمع أسيد بن حضير دعوة النبي لملاحقة المشركين، وكان به سبع جراحات يريد أن يداويها فقال:

(سمعا وطاعة لله ولرسوله وأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء، ولحق برسول اللهﷺ ...وخرج من بني سلمة أربعون جريحا: بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحا وبخراش بن الصمة عشر جراحات حتى وافوا رسول اللهﷺ فقال لمّا رآهم: «اللهم ارحم بني سلمة»)[٢].

وقال رجل من بني عبد الأشهل:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٨٣/١.

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزي ١٦٧/١، صححه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٢.

(شهدت أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل؛ فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحا، فكان إذا غلب حملته عقبة – جعلته يركب– ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون)[١].

سعد بن الربيع رضي الله عنه

سعد بن الربيع: صحابي جليل، وهو أحد نقباء الأنصار، آخى النبي ﷺ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف في المدينة، وقد عرض عليه سعد أن يشاطره ماله، وان يطلق له أيّ زوجتيه يريد فاذا انقضت عدتها تزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلّني على السوق. فذهب فباع واشترى وربح...[٢].

ولمّا دخلت أم سعد بنت سعد بن الربيع على أبي بكر الصديق، ألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عمر بن الخطاب فسأله عنها فقال: هذه ابنة من هو خير مني ومنك؛ قال: ومَنْ هو يا خليفة رسول الله؟ قال: رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ، تبوّأ مقعده من الجنة، وبقيت أنا وأنت[٣].

ان سعد بن الربيع هذا قاتل قتال الأبطال في غزوة أُحد حتى استُشهد. ولندع الصحابي الجليل زيد بن ثابت يروي لنا آخر لحظات حياته فيقول:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٤٨/٣.

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ٩١/١، وصحيح البخاري في كتاب البيوع (باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾) ص ٥٣٥، حديث ٢٠٤٨.

(٣) ينظر: الاصابة ٥٩/٣

(بعثني رسول اللهﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول اللهﷺ كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول اللهﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول اللهﷺ السلام، قل له: يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى رسول اللهﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته)(١).

أنس بن النضر رضي الله عنه

هو أنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري من بني النجار، وهو عم أنس بن مالك رضي الله عنهم، ولم يتحدث عنه كتاب السير الا القليل القليل، من ذلك: جهاده وتضحيته وشجاعته في غزوة أحد. وقد روى لنا ذلك ابن أخيه أنس بن مالك، ولولاه لما وصلنا شئ عنه. قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

(غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال يا رسول الله: غبتُ عن أوّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين؛ ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: [اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعنى أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء] -يعنى المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال يا سعد بن معاذ: الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ١٠٧/٣.

بسهم، ووجدناه قد قُتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنّا نرى أو نظن أنّ هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾)[1].

وقد روي أنّ أنس بن النضر مرّ يوم أحد على جماعة فيهم عمر بن الخطاب فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جالد بسيفه حتى قُتل رضي الله عنه[2].

لقد شمّ أنس رائحة الجنة، فانطلق يجاهد هذا الجهاد لا يلوي على شيء. ولمّا دارت الدائرة على المسلمين، واستحرّ القتل بالصحابة في هذه الغزوة؛ لمخالفة الرماة أمر النبي ﷺ بعدم مغادرة الجبل، وهرب منهم من هرب، بعد أن أشيع أنّ النبي ﷺ قُتل، ظل أنس رابط الجأش، ثابتا في مكانه، يجاهد أعداء الله حتى استشهد ولم يهرب. ولا يستطيع أن يقف مثل هذه المواقف الإيمانية إلا العظماء من المؤمنين. لقد وفّى أنس ما عاهد الله عليه.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب: قول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ص٧٢٨-٧٢٩، حديث ٢٨٠٥.

(٢) سيرة ابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني ١٢٠/٣ بتحقيق: همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبد الله أبو صعيليك، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

عبد اللّه بن أم مكتوم

عبد الله بن أم مكتوم: رجل من عامة الناس، فقد بصره صغيرا. ولمّا بعث الله محمداﷺ بالإسلام، قذف الله حب هذا الدين في قلبه، فأعلن إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم. ولمّا أذن النبيﷺ لصحابته بالهجرة، هاجر إلى المدينة قبل أن يقدم النبيﷺ إليها، وكان يعلّم الناس القرآن ويفقههم في الدين، فلمّا وصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، شارك ابن أم مكتوم في بناء المسجد، ولم يتخلف عن صلاة واحدة خلفه، وكان يؤذن حين يغيب بلال، وقد استخلفه النبيﷺ على المدينة في عدد من غزواته. وكانﷺ قد نزل في دار يهودية بالمدينة عمّة رجل من الأنصار، وكانت تُحسن إليه، لكنّها تسمعه ما يكره في الله ورسوله، وحاول أن يردعها فلم ترتدع؛ فضربها ليمنعها من ذلك فماتت.

لقد كان هذا الصحابي على الرغم من فقده بصره شجاعا كل الشجاعة. كان يخرج إلى الغزو ويقول: إدفعوا إليّ اللواء؛ فإنّي أعمى لا أستطيع أن أفرّ، وأقيموني بين الصفين. قال أنس بن مالك: كان مع ابن أم مكتوم يوم القادسية راية ولواءاً[(١)].

عبد اللّه بن جحشﷺ

هو عبد الله بن جحش بن رباب الاسدي، وهو من السابقين الى الاسلام، أسلم قبل دخول النبيﷺ دار الأرقم، وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية، وآخى النبيﷺ بينه وبين عاصم بن ثابت، وقد عقدت اول راية له في الاسلام،

---

(١) صفة الصفوة ١/٥٨٤.

عقدها رسول اللهﷺ، وكانت الى (نخلة) وهي مكان بين مكة والطائف، وكان يُسَمّى المجدّع في الله، ولنقرأ كيف كان حبه للشهادة في سبيل الله.

قبل أن تقع غزوة (أُحد) بيوم واحد، دعا عبدُ الله بن جحش بهذا الدعاء فقال: (اللهم إني أُقسم عليك أَنْ ألقى العدوّ غداً فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي وأُذني، ثم تسألني بمَ ذاك؟ فأقول: فيك). وتقع غزوة أُحد، ويسقط شهيداً، وهو ابن نيف واربعين سنة، وفُعِلَ به كما أقسم على الله. قال راوي الحديث سعيد بن المسيب: (إني لأرجو أن يبرَّ الله آخر قسمه كما برَّ أوّله)[1].

البراء بن مالكرضي الله عنه

هو البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري، صحابي جليل، وأخو أنس بن مالك خادم النبيﷺ، كان بطلا من أبطال المسلمين، وقد اشتهر أنّه قتل مائة نفس من الشجعان مبارزة[2] وشهد المشاهد كلها مع النبيﷺ. وفي حرب مسيلمة الكذاب أمر البراء أصحابه أن يحتملوه على ترس على أسنة رماحهم، ويلقوه في الحديقة. فاقتحم إليهم، وشدّ عليهم، وقاتل حتى افتتح باب الحديقة، فجرح يومئذ بضعة وثمانين جرحا، ولذلك أقام خالد بن الوليد عليه شهرا يداوي جراحه[3].

ولقد قال النبيﷺ «كم من ضعيف متضعِّف ذي طمرين، لو أقسم على

---

(١) رواه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة (ذكر مناقب عبد الله بن جحش) ٢٢٠/٣، حديث ٤٩٠٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩٦/١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩٦/١.

الله لأبرّ قسمه» منهم البراء بن مالك. فإن البراء لقي زحفا من المشركين، وقد أوجع المشركون في المسلمين فقالوا: يا براء، إن رسول الله ﷺ قال: « إنك لو أقسمت على الله لأبرَّك، فأقسمْ على ربك؛ فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم[1]،

ولقي البراء زحفا آخر فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء، أقسمْ على ربك؛ فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك ﷺ؛ فمنحوا أكتافهم، وقُتِلَ البراء شهيدا[2].

هكذا يفعل الإيمان في قلب المجاهد! فقد باع هذا الصحابي نفسه لله، فلله درُّك يا براء ما أعظم جهادك في سبيل الله.!!

زيد بن الخطاب رضي الله عنه

كان زيد بن الخطاب –وهو أخ لعمر بن الخطاب– يحمل راية المسلمين يوم اليمامة. ولقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال، فجعل زيد يقول: (أما الرحال فلا رحال، وأما الفرار فلا فرار. ثم جعل يصيح بأعلى صوته: اللهم إنّي أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ اليك مما جاء به مسيلمة، وجعل يشتدّ بالراية ينفذ بها في نحر العدوّ، ثم ضارب بسيفه حتى قُتِل، ووقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم،

---

(١) رواه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة (ذكر البراء بن مالك الأنصاري) ٣/٣٣١، حديث ٥٢٧٤.

(٢) رواه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة (ذكر البراء بن مالك الأنصاري) ٣/٣٣١، حديث ٥٢٧٤.

إنا نخاف أن نؤتى من قِبَلك فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أُتيتم من قبلي)[١].

جعفر بن أبي طالبرضي الله عنه

جعفر بن أبي طالب هو ابن عم النبيﷺ، وهو أخ لعلي بن أبي طالبرضي الله عنه. قاتل يوم غزوة مؤتة قتالا شديدا، فاقتحم على فرس له شقراء فعقرها، ثم قال:

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وباردا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها   عليّ إن لاقيتها ضرابها

ثم قاتل حتى قُتل.

قال عبد الله بن عمررضي الله عنه: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية. وقال النبيﷺ:

«مرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة، وهو مخضب الجناحين بالدم أبيض الفؤاد»[٢].

عمير بن أبي وقاصرضي الله عنه

عمير بن أبي وقاص –وهو أخ لسعد بن أبي وقاص– شاب أسلم في مكة، وهاجر إلى المدينة، شهد غزوة بدر، واستشهد فيها وعمره –إذ ذاك– ست عشرة سنة، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ويروي قصة حضوره في بدر أخوه سعد بن أبي وقاص فيقول:

(رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل ان يعرضنا رسول اللهﷺ للخروج

---

(١) صفة الصفوة ٤٤٨/١.

(٢) رواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. المستدرك ٢٣٤/٣، حديث ٤٩٤٣.

إلى بدر يتوارى؛ فقلت: ما لك يا أخي؟ فقال: أني أخاف أن يراني رسول اللهﷺ فيستصغرني فيردني، وانّي أحب الخروج؛ لعلّ الله يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول اللهﷺ فاستصغره، فقال: ارجع؛ فبكى عمير؛ فأجازه رسول اللهﷺ قال سعد: فكنت اعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة)(١).

خالد بن الوليدرضي الله عنه

قال خالد بن الوليد لمّا حضرته الوفاة:

(لقد طلبت القتل مظانّهُ فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتّها وأنا متترس، والسماء تهلني ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار)(٢).

وقال –أيضا– لمّا احتضر:

(لقيت كذا وكذا زحفا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أورمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء)(٣).

وبعد:

فهذه نماذج قليلة من تضحية الصحابةرضي الله عنهم، تفصح عن حقيقة الإيمان الحق الذي عَمَرَ قلوبهم، وتمكّن فيها، حتى صار الواحد منهم كأنّه يرى الناس رأي العين في الجنة وهم يتنعمون، فصار في شوق للقاء الله لنيل شرف

---

(١) صفة الصفوة ٣٩٤/١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٨١/١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٨٢/١.

الشهادة؛ ليحظى بما أعدّه الله تعالى له من كرامة.

لقد كان للصحابة آباء وأمهات وأبناء وإخوان وأزواج وأموال، لكنّ حبهم لله ولرسوله وللجهاد من أجل نشر دين الله أكبر وأعظم من ذلك. وهذا أثر من آثار بناء النبيﷺ لشخصية الصحابة في حب الجهاد في سبيل الله، وكانت سماتهم تفصح عن صلاحهم حتى عند الناس الذين فتح الصحابة بلادهم، وقد قال الإمام مالك –إمام دار الهجرة–:

(بلغني أنّ النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: [والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا])(١).

فما أحوج شبابنا ومثقفينا إلى أن يتأملوا بذلك الجهاد، ويدرسوا حياة الصحابة الذين هيهات أن تجود الدنيا بأمثالهم. فقد كان لهم الفضل الكبير على كل مسلم في هذا الوجود إذ قاموا بإيصال الإسلام إلينا، ولولاهم لما وصل إلينا هذا الدين، ولما كنّا اليوم مسلمين.! فرضي الله عنهم وأرضاهم.!

---

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للشيخ: أحمد بن محمد القسطلاني، ٥٣٨/٢، شرحه وعلّق عليه: مأمون بن محي الدين الجنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية، بيروت. والحواريون: هم أصفياء سيدنا عيسى وكانوا اثني عشر رجلا.

مداخل الشيطان

الشيطان في اللغة: مشتق من شَطَنَ: إذا بَعُد. وسُمي بذلك لبعده عن الحق أو عن رحمة الله تعالى.

ويجوز أن يكون مشتقاً من شاط يشيط: أي هلك واحترق وبطل[1]، ويطلق على كل عات متمرد. وسمي الشيطان بهذا : لعتوّه وتمرده على ربه، وسماه الله تعالى بـ (إبليس).

ولفظ (إبليس) من (أبلس) بمعنى يئس وتحيّر، وورد لفظ (شيطان) في القرآن الكريم ٨٨ مرة وهو عدد ليس بالقليل، ويمثل قوة أقبلت من خارج الإنسان تريد اقتحامه من داخله، وابعاده عن صراط الله المستقيم، مزودة بقوة إغوائية مؤثرة، تسيطر على قسم من ضعاف الإيمان ومن لا ايمان لهم، فتجعلهم منقادين خاضعين لتلك الوساوس التي تدفعهم إلى التنائي عن الطريق الصحيح، مزينة لهم ارتكاب الخطايا، فلا يستطيع الإنسان الخلاص منها إلا بالاستعاذة بالله والمجاهدة الدائمة لتلك الوساوس.

وعداوة الشيطان للإنسان قديمة، ابتدأت منذ أن خَلَقَ الله تعالى آدمعليه السلام، وأمر الملائكة والشيطان بالسجود لهذا المخلوق الجديد الذي خلقه الله من طين، فسجدت الملائكة وأبى الشيطان أن يسجد استكباراً: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ سورة الأعراف. فأهبطه الله من المكانة العالية التي كان فيها. لقد علم أن سبب ما أصابه من الحطة كان لعدم سجوده لآدم، فقرر أن ينتقم منه، ويستغل أيَّة مناسبة كانت لإلحاق الأذى به.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، ولسان العرب لابن منظور، والمصباح المنير للفيومي.

عاش سيدنا آدم في الجنة عيشة رغد، وقد نهاه الله وزوجه أن يأكلا من شجرة معينة امتحاناً لهما، فصار إبليس يوسوس لهما ويغويهما بالأكل منها، لتتم المعصية منهما، متبعاً عدداً من الأساليب في ذلك، فمرة يَعدهما إن أكلا منها بالخلود، وقد طُبِعت النفس البشرية على حب الخلود، ومرة يقسم لهما أنه لهما ناصح، وصوّر القرآن الكريم ذلك الإغواء بقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ سورة الأعراف.

كانت فطرة سيدنا آدم عليه السلام صفحة نقية بيضاء طاهرة، لم يعلق بها شيء من الشر والسوء والفساد، فهو يُصدق ما يُلقى إليه ولا يسيء الظن بأحد، وأمام وسوسة الشيطان والقسم لهما بإخلاصه لهما بالنصح أكلا من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، فتم العصيان، ثم تاب الله عليهما، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ سورة طه.

ومن هنا بدأت العداوة بين الإنسان والشيطان على الأرض وظلت قائمة،

وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

ولا يظنّن أحد أن الشيطان سيرفع راية الاستسلام في يوم من الأيام، ويقلع عن غوايته وإفساده بني آدم، لا، إنه لا يفعل ذلك، بل يستحيل أن يفعل؛ لأنه صاحب قضية أعلنها أمام الله رب العالمين، متمثلة في إضلال المجتمعات عن شريعة الله رب العالمين، فلا يتوقف حربه مع بني آدم: فإما أن ينتصر، فيضل من يضل من السائرين في ركابه، وإما أن ينهزم مخذولاً أمام عباد الله المخلصين ... أولئك الذين تمكن الإيمان في قلوبهم، فلم يلتفتوا إلى شيء من أساليبه في الإضلال والإفساد.

ولابد لنا أن نعلم أن ما نراه اليوم في العالم من شر وفساد، وارتكاب للمنكرات، وسفك للدماء، وضلال الشباب لم يكن إلا بفعل الشيطان الرجيم، ذلك لأن مداخلهُ إلى النفس البشرية كثيرة، وكيف لا تكون كثيرة وقد عاش مع سيدنا آدم أبي البشر، واكتسب خبرة في الدخول إلى النفس البشرية لغوايتها منذ ذلك الوقت إلى وقتنا هذا... هذه المدة المديدة من الزمن أكسبت الشيطان خبرة في الإغواء فيأتي كل واحد من الناس يوسوس له عن الطريق الذي يؤثر به.

ولكن الله ﷻ لم يترك عباده تلعب بهم الشياطين فقد أمرهم بأوامر، ونهاهم عن نواه، وعلى قدر استجابة الناس لمنهج الله يوفقهم الله في التحصن من مكايد الشيطان، لأن الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا، بل سلطانه على الذين يتبعون ضلاله، ويضعفون أمام إغراءاته وأمانيه.

وأشير هنا إلى أني حين كتبت هذا البحث لا أزعم أن نفسي تخلصت من مكايد الشيطان ومن نزغاته، فما من أحد من الناس ينجو من ذلك؛ لأن

مداخله إلى النفس البشرية كثيرة كثيرة، وقد أبان عن هذا بياناً واضحاً رسول الله ﷺ فقال:

«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينُهُ من الجن»، قالوا: وإياك يا رسول الله! قال: «وإيّاي، إلاّ أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[1].

لكني كتبته لأذكر به نفسي من مداخله بقدر استطاعتي أولاً، إذ من طبيعة الإنسان الغفلة والنسيان، ولأذكر به إخوتي المسلمين بعد ذلك؛ خشية أن يقعوا في مصايده وشباكه، وما أكثر مصايده وما أكثر شباكه التي نصبها ليقع بها بنو آدم.!!

(١) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً) ٤/٢١٦٧- ٢١٦٨، حديث ٢٨١٤.

طرق الشيطان في الغواية والإضلال

أخذ الشيطان على نفسه بعد غوايته أن يغوي من استطاع من الناس بكل وسيلة من الوسائل التي يقدر عليها بعد أن طرده الله من رحمته، وقد أقسم أن يقوم بذلك، معترفاً – في الوقت نفسه – أنه لا يستطيع إغواء عباد الله المخلصين، قال الله تعالى حاكياً قول الشيطان:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ سورة ص.

ولا يترك الشيطان سبيلاً إلا اتبعه ليضل الناس عن طريق الله: فيحسِّن لهم القبيح، ويُقبّح لهم الحسن، ويحبب لهم البدعة، ويكرِّه لهم السنة، ويعدهم ويمنيهم الأماني الكاذبة، ويخوفهم بالفقر إن مدوا أيديهم بالعطاء، قال تعالى على لسان الشيطان مخاطباً رب الأرض والسموات ﷻ:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة الاعراف.

وقد أشار النبيﷺ إلى هذا المعنى –أيضاً– فقال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[(١)].

ولقد تعددت أساليب الشيطان في إغواء الناس وإضلالهم، ومن ذلك ما يأتي:

---

(١) رواه الإمام أحمد ٩٣/١٠ – ٩٤، حديث ١١١٧٨، وإسناده حسن.

إلقاؤه الوسواس في قلوب الناس:

إن حماية القلب من وسواس الشيطان واجب على كل مكلف ولا يمكن دفع وسواسه إلا بمعرفة مداخله إلى النفس البشرية، فصارت معرفة مداخله واجبة على المكلف. ويضرب الشيخ أبو حامد الغزالي مثالاً رائعاً على ذلك فيقول:

(إعلمْ أن مثال القلب مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدريها، فحماية القلب من وسواس الشيطان واجب، وهو فرض عين على كل مكلف، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة)[1].

ومن طرق إضلاله: إلقاء الخواطر الآمرة بالفحشاء وكل سوء في رُوْع الإنسان بغية إضلاله وصده عن طريق الله، وإذا علمنا أن للشيطان نفوذاً في الدخول إلى النفس البشرية، حتى صار يجري من ابن آدم مجرى الدم، أدركنا أن باستطاعته إضلال مَنْ لم يتحصن بالإيمان الحق. ويستغل الشيطان غفلة الإنسان، فيبذر الوساوس في نفسه: فيأتي أهل الإيمان بشبهات قد تؤدي إلى الكفر ليفتنهم عن الإسلام، ولم ينج كثير من الناس من تلك الوساوس، حتى إن من صحابة النبيﷺ من قال للرسول الكريم: (يا رسول الله، إني أحدِّث

---

(١) مكاشفة القلوب للشيخ أبي حامد الغزالي ص٧١، الطبعة الأولى ١٩٨٧، مكتبة الشرق الجديد، بغداد.

نفسي بالشيء، لأنْ آخرَّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أتكلم به! فقال النبيﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»)[١].

ولما سئل النبيﷺ عن الوسوسة: قال: «تلك محض الإيمان»[٢]. ذلك لأن المصابين بتلك الوسوسة مع كراهتها في نفوسهم والعمل على دفعها من قلوبهم هو من الإيمان الصريح، فقد دفع هؤلاء الوساوس فصار الإيمان صريحاً في قلوبهم.

وكثيراً ما يأتي الشيطان إلى المسلم في صلاته، فيذكره بأشياء قد نسيها أو في أمور تهمه، فيقول له: اذكر كذا، اذكر كذا، كي ينصرف المسلم من صلاته ولم يعقل شيئاً منها؛ بل من الناس من لم يدر كم صلى من الركعات، والإنسان حين يصاب بهذا إذا هُرِعَ إلى الله فتذكّره واستعاذ به من وساوس الشيطان، فسرعان ما ينخنس وينقبض ويولي هارباً. يقول ابن قيم الجوزية – رحمه الله–:

(... ذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي مَنْ يُضرب بها... ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته... وفي أثر عن بعض السلف: أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر؛ لأنه كلما اعترضه صبّ عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون

---

(١) رواه الإمام أحمد ٥١٨/٢، حديث ٢٠٩٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها) ١١٩/١، حديث ١٣٣.

قوياً عاتياً شديداً)[1].

أجل إنَّ من يستجيب لتلك الوساوس الشيطانية من غير أن يدفعها عنه قد يصل به الأمر أن يكون كافراً أو منافقاً، وكثيراً ما يأتي الشيطان إلى عباد الله الصالحين ليضلهم عن سبيل الله أكثر مما يأتي غيرهم؛ لأن الشيطان قد كسب الضالين إلى صفه، فهم طوع إشارته، لذلك لا يهتم كثيراً بمن يعاقر الخمرة ويعكف على المحرمات، ولكن يهمه المؤمنون صادقو الإيمان ممن تتعفر جباههم بالسجود لله، وبمن ربتهم المحاريب فصاروا يقومون الليل والناس نيام، فيتوجه إليهم بوساوسه وخداعه ومواربته؛ لعله يضل من استطاع منهم عن سبيل الله، ولا يكتفي الشيطان بوسوسته للإنسان مرة واحدة أو مرتين بل يكرر وسواسه مرات ومرات، ولذلك قالوا: كُرر حرف الواو والسين فقالوا: (وسوس)؛ لكثرة تكرار الوسواس، ولفظ (وسوس) مثل لفظ (زلزل) و(قلقل). يأتي الشيطان إلى العالم، ويطلب منه أن يجلس في بيته ويدع الناس وشأنهم، موحياً إليه أنه إن لم يفعل ذلك، فيصاب بفتنة الشهرة والسمعة، وقد يدخل إلى قلبه الرياء وهو لون من ألوان الشرك!. وبهذه الخديعة يجعل العالم حبيساً في داره، تاركاً المجال فسيحاً وواسعاً أمام الضالين المضلين الذين يتجهون إلى الناس ويخالطونهم، ثم ينحرفون بعقائدهم وأخلاقهم، ويزلزلون فيهم الإيمان ناسياً ذلك العالم أو متناسياً قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠** ﴾

---

(١) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ٢/٢٥٦، إدارة الطباعة المنيرية.

سورةالبقرة.

ومما يروي لنا التابعي الجليل عامر الشعبي أن رجالاً (خرجوا من الكوفة ونزلوا قريباً يتعبدون، فبلغ ذلك عبد الله بن مسعودﷺ فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم فقال لهم: ما حَمَلكم على ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد، فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا)[1].

وهذا التابعي الجليل عبد الله بن المبارك، وهو من هو علماً وفقها ومعرفة ودراية بما يحتاجه عصره، يعود من بعض معاركه، فيرسل إلى الفضيل بن عياض الأبيات الآتية:

يا عابد الحرمين لو أبْصـــرتنا	لعلمـتَ أنـك في العبـادة تلعـبُ
مَنْ كان يخضـــب خده بدموعه	فنحورُنـا بـدمـائنـا تتخضـــب
أو كـان يُتعب خيلـه في باطـل	فخيولنـا يوم الكريهـة تتعـب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنـا	رهج الســنـابك والغبـار الأطيـب
ولقـد أتـانـا عن مقـال نبينـا	قول صـــحيح صـــادق لا يكذب
لا يســتوي وغبار خيل الله في	انف أمرئ ودخـان نـار تلهـب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب[2]

ويحسن بي هنا أن أنقل ما دبجه يراع (ابن قيم الجوزية) رحمه الله في تدرج الشيطان بوساوسه مع ابن آدم، فإنه مفيد ونافع بإذن الله لمن تأمله

(١) كتاب الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك ص٤٩٨.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢٠٢/١ تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى ١٤٢٠- ١٩٩٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

وتدبره ووعاه وعقله، فقد ذكر ست مراتب من وساوسه، وذلك في كتابه القيم بدائع الفوائد:

المرتبة الأولى: شرّ الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله:

فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به، حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يئس منه من ذلك –وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه– نقله الى المرتبة الثانية من الشر.

المرتبة الثانية: شرُّ البدعة:

وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعاته فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر.

المرتبة الثالثة: شرّ الكبائر على اختلاف أنواعها:

فهو أشدّ حرصاً على أن يوقعه فيها ولا سيما إذا كان عالما متبوعاً، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم مَن يشيعها ويذيعها، تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها

وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته، وبدّل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك، فظلم للمؤمنين، وتتبع لعورتهم، وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة.

المرتبة الرابعة:

وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبيﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه»[١].

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة.

المرتبة الخامسة: الاشتغال بالمباحات:

وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى المرتبة السادسة:

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤٣٣/١٦، حديث ٢٢٧٠٧، وإسناده صحيح.

المرتبة السادسة: الاشتغال بالعمل المفضول عما هو أفضل منه:

وهو أن يشغله بالعمل المفضول عمّا هو أفضل منه؛ ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له إذا تضمّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلّ من ينتبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان ،فان الشيطان لا يأمر بخير، ويرى ان هذا خير فيقول هذا الداعي من الله، وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير: إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسولﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا مَن كان من ورثة الرسولﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله يمنّ بفضله على من يشاء من عباده، فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست، وأعيا عليه، سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير، والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى

وضعها أسر أو أُصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله[1].

٢- الغضب:

الغضب نقيض الرضا، وهو انفعال في النفس البشرية، يحمل صاحبه على الانتقام شفاءاً لما في الصدر، وكثيراً ما يتصرف الغاضب تصرفاً يأباه العقل، فهو يعمي صاحبه ويصمه عن السبيل الرشيد، ويجعل الإنسان يفعل ما لا تحمد عقباه، وما يؤدي إلى الندم والوقوع في مذلة الاعتذار، وقد قال النبيﷺ: «إياك وكل ما يعتذر منه»[2]. وإذا زاد الغضب في الإنسان، فقد يقتل صاحبه...! إنه أسلوب من أساليب الشيطان؛ ليفسد على الناس حياتهم؛ ذلك لأن خلقة الشيطان كانت من نار، والغضب إنْ هو إلا شعلة منها، والإنسان حين يغضب ينزع فيه عرق إلى الشيطان؛ إذ من خصائصه الاشتعال فتحدث الجرائم، وتضعف رابطة الاخوة بين الناس، لذلك نجد النبيﷺ يدعونا إلى الابتعاد عن الغضب، مبيناً أن امتلاك زمام النفس يمثل القوة الحقيقية، ولا يمثلها قوي الذراع ولا مفتول العضلات ممن يصرع الابطال في ميدان المنازلة ، لكن يمثلها مَن يملك نفسه عند الغضب، وأبان صلوات الله وسلامه عليه عن هذا المعنى بياناً واضحاً شافياً فقال:

---

(١) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ٢/٢٦٠- ٢٦٢، إدارة الطباعة المنيرية- دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني المجلد الأوّل، القسم الثاني، ص٦٨٩، حديث ٣٥٤.

«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

ولمّا كان الشيطان يثير في بني آدم الغضب، فقد دعانا النبيﷺ إلى قطع أسباب وسوسته وهو الغضب، فعن سليمان بن صُرَدرضي الله عنه قال: (استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرّ وجهه؛ فنظر إليه النبيﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»)[2].

وهذا الحديث الشريف مستمد من قول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ سورة الأعراف.

وهذا الغضب الذي يوسوس به الشيطان إذا استطاع الإنسان أن يعالجه فلا يغضب، يكون في منجاة من غضب الله تعالى، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ: ماذا يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: «لا تغضب»[3].

هذا هو الغضب المذموم، وهناك غضب محمود: وهو ما كان في جانب الحق، وبخاصة إذا انتهكت حرمات الله... جاء في الحديث النبوي الشريف: (ما انتقم رسول اللهﷺ لنفسه في شيء قط، إلاّ أنْ تنتهك حرمة الله، فينتقم بها

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: الحذر من الغضب) ص١٥١٨، حديث ٦١١٤، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب) ٤/٢٠١٤، حديث ٢٦٠٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: فضل مَن يملك نفسه عند الغضب) ٤/٢٠١٥، حديث ٢٦١٠.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح ٦/١٩٤، حديث ٦٦٣٥.

الله)[1].

٣- الوعد والأماني الكاذبة:

تسير النفس البشرية وراء من يعدها ما تهواه، ويرغبها فيما تحبه، وما استطاع أحد أن يلعب بعقول مّن لا إيمان لهم، أو مَن كان إيمانهم ضعيفاً، أو السذج من الناس كما فعل الشيطان واستطاع الشيطان أن يفعل الأفاعيل، بما قدمه من الوعد والأماني لمن ينهج نهجه، ويسلك طريقه، فغوى من غوى من الناس، وهل رأس مال الشيطان غير الأماني الكاذبة؟! وقد أشار القرآن الحكيم إلى عمله هذا فقال تعالى عن الشيطان: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ ﴾ سورة النساء.

وقال عنه –أيضاً–:

﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ سورة النساء.

إن الإنسان يحرص على طول عمره، ويأتيه الشيطان يعده بذلك، ويزين له أن يستغرق في ملذاته وشهواته المحرمة موحياً إليه بأن العمر طويل، ويستطيع أن يتوب في آخر حياته!.. وسرعان ما يُخدع الإنسان؛ فيقدم على الشهوات المحرمة يعبُّها عباً، ويمتلكه الندم حين يتبين له أن وعود الشيطان كانت غروراً؛ فاخترمته المنية من غير أن يطول عمره!. وقد قال الحسن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: قول النبيﷺ: يسروا ولا تعسروا) ص١٥٢٠، حديث ٦١٢٦.

البصري يوما لجلسائه: يا معشر الشيوخ، ما ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد. قال: يا معشر الشباب، إنّ الزرع قد تدركه العاهة قبل أن يبلغ[1].

ويأتي الشيطان ناساً آخرين، فيمنيهم بارتفاع مكانتهم والظفر بأعدائهم، وبكثرة ما يحصلون عليه من مال إن هم اعتقدوا اعتقاد المشركين، وعملوا عمل الكافرين!!.

ويأتي الأغنياء فيحضهم على جمع الدنانير والدراهم بأية طريقة كانت، فيقومون بظلم الناس، ويغشون في أعمالهم من أجل جمع المال ... ويندم هؤلاء أشدَّ الندم حين تنكشف الأمور لهم، ويتبينون أنهم خدعوا بوعود الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة، فقد وعدهم الباطل ومناهم المحال، قال الله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾** ﴾ سورة إبراهيم.

وهكذا يسلك الشيطان مع أوليائه السائرين في طريق ضلاله، ممن لم يتمكن الإيمان في قلوبهم هذه السبل في الخديعة، فيوردهم النار ثم يتبرأ منهم.

٤- تزيين الأعمال السيئة:

التزيين: هو التجميل والتحسين. والشيطان بما يملكه من خداع ومكر ودخول إلى قلوب الناس، يزين الأعمال القبيحة للإنسان فيظهرها بمظهر حسن، ولم يترك وسيلة من وسائل تزيين القبيح إلاّ اتبعها، بغية إضلال الناس

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي، ص٢٣٠، دار القلم، الكويت.

وصدهم عن سبيل الله، ومن ذلك: تحسينه المعاصي من شرب الخمرة، ومعاكسة النساء، والنظر إلى الأفلام الخليعة التي تؤول مشاهدتها إلى ارتكاب الفاحشة، وإلى ظلم الناس بعضهم بعضاً، وإلى كل ما حرمه الله...! وتزيين هذه المعاصي وأمثال لها لم يكن خاصاً بالأمة الإسلامية وحدها، بل هو عمل الشيطان مع الأمم كلها، قال تعالى على لسان إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة الحجر.

وزيَّن الشيطان للأمم الكافرة أعمالهم السيئة، قال تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ سورة النحل.

وقد ذكر الله في القرآن الكريم أمماً زيَّنَ الشيطان أعمال الشرِّ فيها، منها: قوم عاد وثمود، وسبأ وكفار قريش، والمرتدون عن الإسلام... كما أضل الشيطان أيضاً الذين يتحاكمون لغير شرع الله، والذين يُعرضون عن ذكره تعالى، والذين يشربون الخمرة ويلعبون الميسر...!.

ومن تزيين الشيطان للمعاصي تسمية الأشياء بغير أسمائها لإغواء الناس بها فيسمون الخمرة التي هي أم الخبائث بالمشروبات الروحية، ويسمون الربا بالفائدة، ويسمحون بالكفر وتضليل عقائد الأمة باسم حرية الفكر ويسمون تبرج المرأة وإظهار مفاتنها أمام الرجال الأجانب تقدمية...!.

ولا ريب أن تزيين المعاصي إن هو إلا ضرب من ضروب الصدّ عن سبيل الله ... وتتعدد مناهج الشيطان، والهدف واحد.

٥-التخويف بالفقر:

عمل الشيطان –وما زال كذلك يعمل– على تشويه عقيدة المسلم التي نصَّت على أن النفع والضر بيد الله وحده، وأنّ من أسمائه تعالى (النافع) و(الضار)، وأنه تعالى كتب ارزاق العباد وكتب أعمارهم أيضاً، فلا يستطيع أحد أن يمنع أحداً ديناراً واحداً ولا درهما إذا كان الله قد كتبه له، ولا يستطيع أحد أن يُقدم يوماً أو ساعة من حياة أي إنسان كان، ولا يؤخر أجله يوماً أو ساعة .... هذا ما ذكره القرآن، وما ذكره النبيﷺ. ويأتي الشيطان إلى الإنسان بوساوسه، يخوفه الموت والفقر، ويزين له الابتعاد عن أي عمل كان من أعمال الخير، وكمثال واحد من أمثلة كثيرة على ما يتبعه الشيطان في التخويف من الفقر: دعوته الناس إلى قبض أيديهم عن دفع حق الفقراء من المال، والبخل عن دفع المال لنشر دعوة الإسلام، ذلك لأن هذه الدعوة كما هي بحاجة إلى الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته تعالى، فإنها بحاجة أيضاً إلى بذل المال في سبيل الله، وقد قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ سورة التوبة.

وقال عن هذه البيعة الحسن البصري رحمه الله:

(بيعة رابحة، وكفة راجحة، بايع الله بها كل مؤمن... والله ما على الأرض

مؤمن إلاَّ وقد دخل في هذه البيعة)[1].

ويأتي الشيطان بمكره وخداعه ليصد المسلم عن الإنفاق في سبيل الله، فيوسوس له أنه بحاجة لهذا المال، وأن أولاده بحاجة له أيضاً، وأن الإنفاق منه يعرضه إلى النقصان أو الزوال .... وهكذا حتى يخوفه الفقر، فإذا لم يكن الإيمان قد تمكّن من قلب المسلم فإنه ينخدع بوساوسه، لذلك صار واجباً حتماً على المسلمين أن يقفوا موقفاً حازماً صارماً من تخويف الشيطان لهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ ﴾ سورة آل عمران.

ووصف النبيﷺ أساليب الشيطان في التخويف من الأعمال الصالحة: كالإسلام والهجرة والجهاد في سبيل الله، وكيف يقاوم المؤمن صادق الإيمان هذه الوساوس فقال:

«إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقه: فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسلم، وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟! فعصاه، فأسلم! ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتَدَع أرضك وسماءك، وإنما مَثَلُ المهاجر كمثل الفَرَس في الطِّوَل؟! فعصاه فهاجر! ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد، فهو جَهْدُ النفس والمال، فتقاتل، فتُنكح المرأة، ويُقسَمُ المال؟! فعصاه فجاهد»[2].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩٩/١٦، المطبعة البهية المصرية ١٣٥٧- ١٩٣٨ القاهرة.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣٩٠/١٢- ٣٩١، حديث ١٥٩٠٠، والنسائي- واللفظ له – في صحيح سنن النسائي للألباني ٣٨٠/٢، حديث ٣١٣٤.

٦- الغفلة والتغافل والنسيان:

الغفلة والتغافل ونسيان ما أمر الله به ورسوله من أحكام الشريعة: هي من أساليب الشيطان، فيقوم بإشغال الإنسان بأمر أو أمور تهمه؛ لينسى أو يتناسى أوامر الله ونواهيه، فيعمل –مثلاً– على أن ينسى المسلم ذكر الله تعالى؛ لأن من يذكر الله يصير قلبه مشغولاً به سبحانه، ونسيان ذكر الله يجعل القلب فارغاً من الإيمان؛ فيستخدمه الشيطان في الضلال والفساد.

وهناك لون آخر من ألوان النسيان يقوم به الشيطان، فيدعو أولياءه من شياطين الإنس إلى الاستهزاء أو السخرية ببعض أحكام الشريعة، ويجلس مع هؤلاء ناس ممن آمن بالله واليوم الآخر، ويستمعون إلى شبهات يثيرها هؤلاء عن الإسلام لينحرفوا بعقائد الناس إلى الكفر أو الضلال... فجاء النهي من الله تعالى عن الجلوس معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، ويفعل الشيطان فعله في الإنسان فينسى هذا الحكم فيجلس مع الذين يخوضون في آيات الله، فإذا تذكّر أمره تعالى بوجوب مفارقة ذلك المجلس سارع في القيام منه، وأشعر الجالسين أنه قام من مجلسهم لمساسهم بدينه؛ لأن الدين لدى المسلم أعز عليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين، وهذا ما نصّ عليه القرآن الكريم قال تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ سورة الأنعام.

وفي هذه الآية دليل واضح على ما يقوم به الشيطان؛ إذ يُنسي قسماً من الناس هذا الحكم، ولا يكون المسلم مؤاخذاً بالنسيان؛ لأن القلم رُفع عن الناسي، ولكن عليه أن يبادر بترك ذلك المجلس إذا تذّكر. والشيطان يهمه

أن يكثر جلساء المجالس الذين يخوضون في آيات الله: بإثارة شبهات أو شبهة مضلة؛ فتضله عن صراط الله المستقيم.. وحتى لو لم يضل، فقد يتهاون ويسكت أمام الطاعنين بدين الله من كثرة مجالسته لهم، ويأتي النهي والوعيد الشديد على مَن يقعد بعد الذكرى مع الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، بأن حكمهم يصير كحكم الكافرين والمستهزئين، وفي هذا وعيد شديد لمن يجالسهم ويقرهم، وقد نصَّ على هذا قوله تعالى:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ سورة النساء.

وهل هناك تهديد شديد أكثر من هذا التهديد (إنكم إذن مثلهم؟!) ومَن يرضى أن يكون مع الكافرين والمنافقين في جهنم؟!!.

كيف يتحصن المسلم من وساوس الشيطان؟

هناك أمور قولية وعملية إذا قام بها المسلم قياماً صحيحاً بنية خالصة لله، وقاه الله شرّ وساوس الشيطان، منها ما يأتي:

١- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

ورد لفظ الاستعاذة في اللغة: بمعنى الالتجاء والاعتصام والاستجارة بمن يملك قوة للاعتصام به من المكروه، وقد أمر الله به عباده أن يستعيذوا به من كل شر، ولا تكون الاستعاذة إلا بالله وأسمائه وصفاته، وكل من استعاذ به تعالى يعيذه ويعصمه ويقيه، وهي دواء يزيل نزغات الشيطان التي تضل بني آدم.

وحين يتعوذ الإنسان بالله، فإنه يقرّ بان قدرة الله هي القدرة التي لا يقف أمامها شيء فيخضع لله، ولا يجد الغرور إلى نفسه سبيلاً؛ لأنّ الله تعالى أقوى وأكبر وأقدر، وهنا يلجأ المؤمن إلى الله في طرد كل وسواس، بعد أن يستحضر المستعيذ بالله عظمة خالقه، فيستعيذ به وقلبه قد تعلّق به فيفرّ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، ويتحصن بالله وحده، قال الله تعالى:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ سورة المؤمنين.

وقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ سورة الأعراف.

وقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة فصلت.

أي إذا حاول الشيطان بما يحمله من وسوسة ومكر وخداع أن يدعوك إلى ارتكاب الشر والفساد، فأفزع إلى الله معتصماً بجنابه، فهو القادر أن يدفع عنك وساوس الشيطان، ويصونك من نزغاته.

وإذا كان القرآن الحكيم قد طلب منا أن نتعوذ من الشيطان الرجيم، فلأنه عدو للإنسان يبغي الإضرار به في الدنيا والآخرة، وحين يستعيذ المسلم بالله من الشيطان، فكأنه يقول: إني استجير بحول الله وقوته من شرِّ الشيطان الذي يريد أن يضرني في ديني ودنياي، ويصدني عن فعل الخيرات، ويدعوني إلى ارتكاب المنكرات.

ولقد كان النبيﷺ كثير التعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وكان من تعوذه

إذا دخل الخلاء قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الخُبث والخبائث»[١] أي: ذكران الشياطين وإناثهم.

وكانﷺ يقول عند الفزع من النوم: «بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[٢].

إن الشيطان الرجيم يستغل الضعف البشري –وبخاصة عند الغضب وقلة الصبر عن الإساءة– فينزغ في النفس البشرية، فتثور وتصير مفقودة الزمام، وتأتي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لتكون وقاية للمؤمن يعتصم بها من تلك النزغات، كيلا ينفذ الشيطان على نفسه عن طريق الغضب، وقد مرّ بنا حديث سليمان بن صُردرضي الله عنه قال: (استبّ رجلان عند النبيﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرّ وجهه، فنظر إليه النبيﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها، لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[٣].

وقال النبيﷺ:

«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلقَ كذا؟ مَن خلقَ كذا؟ حتى يقول: مَنْ خَلَقَ ربُّك؟ فإذا بلغه، فليستعذ بالله ولينته»[٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحيض (باب : ما يقول إذا اراد دخول الخلاء) ٢٨٣/١، حديث ٣٧٥.

(٢) رواه أبو داؤد بإسناد حسن في كتاب الطب (باب: كيف الرقي) ص٦٩٨، حديث ٣٨٩٣.

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب (باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب) ٢٠١٥/٤، حديث ٢٦١٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: صفة إبليس وجنوده) ص٨٣٧، حديث ٣٢٧٦، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها) ١٢٠/١، حديث ١٣٤.

وسؤال الشيطان فيه نزغة من نزغاته، فإذا ألقاها في روع الإنسان، فلا يجوز له أن يسترسل معه، بل عليه أن يعلم أن ذلك من وساوسه، وعلاج ذلك: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والوقوف عند هذا الحد. وهكذا نجد الاستعاذة أماناً واطمئناناً للإنسان تدخل الراحة إلى نفسه، وتبعث الأمل في فؤاده، فيجد سعادته المثلى التي يفقدها من لم يكثر الاستعاذة من الشيطان الرجيم.

٢- ذكر الله ﷻ:

المراد بذكر الله: تمجيد العبد لربه، والثناء عليه وحمده، وتعظيمه ، والشكر له.

وذكر الله غذاء روحي يعصم الإنسان عن الانسياق مع وساوس الشيطان ... إنه حياة القلوب، وغذاء الروح، يجد الإنسان فيه الطمأنينة، ولا يجد الذاكر القلق إلى نفسه سبيلاً، فيصون صاحبه عن اقتراف المعاصي، ويحضه على الطاعات، ويترك أثره الكبير في نفسه: فإذا غفل القلب عن ذكر الله، جثم الشيطان على القلب، وبثّ فيه الوساوس التي تعكّر عليه حياته، بل تعكّر عليه عقيدته أيضاً، ولكن ما إن يذكر العبد ربه، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى ينخنس الشيطان وينقبض، ولابد أن يجد الذاكر لله في قلبه الطمأنينة، ويبتعد عن المعاصي ويكثر من الطاعات، ويجد الذاكر لذة في ذكره، فإن لم يجد الذاكر لله في نفسه ذلك، فيكون قد أتى بصورة الذكر ولم يأت بحقيقته والله تعالى يقول:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة الرعد.

ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن داعية إلى الذكر، وكذلك أحاديث

النبيﷺ، فمن آيات القرآن قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ سورة الأعراف.

وقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب.

ونهى ﷻ المؤمن أن يلهيه ماله أو ولده عن ذكر الله، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة المنافقين.

وقد أكدّ الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه على هذا الجانب فقال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»[(١)].

وقال:

«مَن قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرَه، ومَن اضطجع مَضْجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله تره»[(٢)].

وفضائل الذكر كثيرة، وأفضله: تلاوة القرآن في الصلاة، ثم في غير الصلاة ثم في الدعاء والاستغفار....

وذكر الله هو أيسر العبادات، ولا يجد الإنسان مشقة في فعله، فيذكر الله

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: فضل ذكر الله ﷻ) ص١٥٧٨، حديث ٦٤٠٧.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الأدب (باب: كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله) ص٨٧٩، حديث ٤٨٥٦.

في بيته وسوقه وقيامه وقعوده وسفره وإقامته وفي شأنه كله. ويشير سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى فضيلة الذكر فيقول:

(ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلاّ ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها)[1].

وذكر الله يكون بالقلب واللسان والأعضاء وأفضل الذكر ما كان بالقلب واللسان معاً، أما المراد بذكر الأعضاء فهو العمل بطاعة الله في الأوامر والنواهي.

وينبغي أن لا يغرب عن البال أنّ ذكر الله يحصِّن صاحبه من وساوس الشيطان ومن أذاه، قال تعالى:

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١** ﴾ سورة الأعراف.

(وبالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان)[2].

فلا يكون في قدرة الشيطان أن يتسلط على الذاكرين الله، لكنه يتسلط على مَن يغفُل عن ذكره تعالى كما قال الله عز وجل:

﴿ **وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦** ﴾ سورة الزخرف.

اللهم اجعلنا ممن يذكرونك ولا يغفلون عن ذكرك!!.

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٤٠١/١، ضبط نصه وخرّج أحاديثه: د. محمد محمد تامر، الطبعة الأولى (طبعة مؤسسة المختار) ١٤٢٤– ٢٠٠٤، مؤسسة المختار، القاهرة.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ألفه ابن قيم الجوزية، وهذبه: عبد المنعم صالح العلي ٧٣٦/٢.

وننظر في السنة النبوية، فنجد فيها أذكاراً تطرد الشيطان، ومن تلك الأذكار:

أ- ذكر الله عند الاستيقاظ من النوم:

قال النبيﷺ: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان»(١).

ب- ذكر الله عند الأكل ودخول الدار:

قال النبيﷺ: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عَشَاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»(٢).

جـ- ذكر الله عند الخروج من البيت:

قال النبيﷺ: «من قال -يعني إذا خرج من بيته- : بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له: كُفيتَ ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»(٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب التهجد (باب: عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل) ص٣٣١، حديث ١١٤٢، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح) ٥٣٨/١، حديث ٧٧٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الأشربة (باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها) ١٥٩٨/٣، حديث ٢٠١٨.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: ما يقول إذا خرج من بيته) ص٧٧٩، حديث ٣٤٢٦.

د- الأذان والإقامة يطردان الشيطان:

قال النبيﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب -أي إقامة الصلاة- أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى»[(١)].

هـ- حرز من الشيطان:

قال النبيﷺ:«مَنْ قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ أحد عمل أكثر من ذلك»[(٢)].

هذا هو الذكر: إنه سلاح المؤمنين، وحصنهم من وساوس الشياطين، فمن أخذ به وقاه الله من تلبيساتهم وخداعهم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الآذان (باب: فضل التأذين) ص٢١٦، حديث ٦٠٨، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب: السهو في الصلاة والسجود له) ٣٩٨/١، حديث ٣٨٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: صفة إبليس وجنوده) ص٨٤٠، حديث ٣٢٩٣.

٣- تلاوة القرآن الكريم:

تلاوة القرآن الكريم عبادة من أجلِّ العبادات، وهي غذاء للروح، وشفاء لما في الصدور، وحرز من الشيطان ووساوسه.

وفي القرآن الكريم سور وآيات تقي الإنسان من شرور الشيطان فلا يتسلط عليه، ومن تلك الآيات والسور ما يأتي:

أ- **تلاوة سورة البقرة:** قال النبيﷺ:

«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»[١] وفي رواية أخرى:

«إن البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان».

ب- **تلاوة آية الكرسي:** قال النبيﷺ:

«لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن: هي آية الكرسي»[٢].

جـ- آخر آيتين من سورة البقرة: قال النبيﷺ:

«مَن قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٣].

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد) ٣٩/١، حديث ٧٨٠.

(٢) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن (باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي) ص٦٤٣، حديث ٢٨٧٦، والحاكم في كتاب التفسير (باب: سورة البقرة) ٢٨٥/٢، حديث ٣٠٢٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: في كم يُقرأ القرآن) ص١٣٠٤، حديث ٥٠٥١ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) ٥٥٥/١ حديث ٨٠٨.

د- تلاوة سورة الإخلاص والفلق والناس: قال النبيﷺ لعبد الله بن خبيب: «قل: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً يكفيك كل شيء»[١].

هـ- تلاوة المعوذتين: الفلق والناس:

عن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال: (كان رسول اللهﷺ: يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما)[٢].

٤- الوضوء:

الوضوء في اللغة من الوضاءة: أي الحسن والنظافة، فهو النقاء من النجاسة والدنس، وقد ورد في شرائع الأنبياء كلها، وهو فرض عند الصلاة وعند الطواف ومس المصحف على ماذهب اليه جمهور العلماء، وسنة عند إرادة النوم، ومندوب عند قراءة القرآن وذكر الله والآذان والوقوف بعرفة وزيارة النبيﷺ، ووردت الأحاديث في فضله من ذلك قولهﷺ:

«الطُّهُور شَطر الإيمان»[٣].

وقوله:

«من توضأ فأحسن الوُضوءَ خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الاستعاذة -١- ص٨١٨، حديث ٥٤٢٨، وغيره.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الطب عن رسول اللهﷺ (باب: ما جاء في الرقية بالمعوذتين) ص٤٦٥، حديث ٢٠٥٨، وابن ماجه في كتاب الطب (باب: من استرقى من العين) ١١٦١/٢، حديث ٣٥١١.

(٣) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل الوضوء) ٢٠٣/١، حديث ٢٢٣.

تحت أظفاره»[1].

وقوله:

«إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً مُحَجَّلين من أثر الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعلْ»[2].

ويبتعد الشيطان عن الناس المتوضئين، فلا يلقي إليهم بوساوسه، ويأتي أهل النجاسات والحدث، ولا عجب، فإنه يسكن في محل النجاسات والقلوب البعيدة عن الله تعالى، فإذا داوم المسلم على الوُضوء والطهارة تحصَّن من الشيطان ووساوسه.

٥- غض البصر:

يأتي غض البصر في اللغة بمعنى خفضه. وهو فضيلة أخلاقية عالية، وأدب نفسي كبير، يدلّ على ترفع صاحبه عن الأخلاق الساقطة، وتساميه عن الشهوات الهابطة. وقد دعا القرآن الحكيم إلى غض البصر عمّا حرَّم الله النظر إليه –وبخاصة المرأة الأجنبية– (وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب: فإذا غضّ العبد بصره غضّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته)[3].

وهو أقرب الوسائل إلى المحرّم. وإذا كان القرآن قد أمر بغض البصر

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء) ٢١٦/١، حديث ٢٤٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء) ٢١٦/١، حديث ٢٤٦.

(٣) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص١٣٠، تحقيق: يوسف علي بديوي، الطبعة الثانية ١٤٢٦- ٢٠٠٥، دار ابن كثير، بيروت، دمشق.

فإنه لم يتجه إلى الرجال وحدهم، بل توجه أيضاً إلى النساء؛ لأن كلاً منهما قد طلب منه أن يتحلى بهذه الفضيلة، قال الله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ سورة النور ٣٠-٣١.

وهذا أمر من رب العالمين إلى عباده المؤمنين أمرهم فيه أن يصرفوا أبصارهم عمّا حرّم الله النظر إليه، ويقتصروا على ما أحلَّ الله لهم من النظر إليه، وقد بدأ الله تعالى الآية: الأمر بغض البصر؛ لأنه أصل لحفظ الفرج، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

(والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان: فالنظرة تولد خطره، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابدّ ما لم يمنع منه مانع...)[١].

يتضح من هذا أن النظر هو بريد الزنا، ورسول الشيطان، ورائد الفجور، ومقدمة للوقوع في الفواحش فهو يثير الشهوة، ويؤدي إلى الوقوع بالرذيلة، وفيه ما فيه من الأضرار الفتاكة التي تجعل الناظر يتقلب على جمر الغضى، ويورث الحسرات، وتظهر في وجهه وجوارحه ظلمة، فيرى مالا يقدر عليه، ولا يصبر عنه كما قال الشاعر:

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي المسمى: الداء والدواء، ص١٧٧، حققه وخرَّج أحاديثه/ أسامة بن حسن بن عبد المجيد، دار الجيل، بيروت.

وكنتَ متى أرسلتَ طرْفَك رائداً لقلبك يوماً اتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ولابدَّ لنا أن نعلم أن حمل النفس على التأدب بغض البصر ليس بالأمر اليسير، فإنه يحتاج إلى إرادة قوية وعزيمة ماضية؛ لذلك نجد النبيﷺ قد جاءت أحاديثه آمرة بغض البصر، مبينة أن النظر إلى ما حرّمه الله هو لون من ألوان الزنا المجازي، فقالﷺ:

«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة : فالعينان زناها النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه»[١].

ونجد النبيﷺ في حديثه هذا قد بدأ بزنا العين؛ لأن ذلك أصل زنا اليد والرجل والقلب والفرج، وواضح من هذا الحديث أيضاً أن العين تعصي بالنظر.

ومن ثناء النبيﷺ على من يغضّ بصره عن محاسن امرأة قوله:

«ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أوّل مرة، ثم يغضّ بصره إلاّ أحدث الله له عباده يجد حلاوتها»[٢].

وينصّ الله سبحانه في حديثه القدسي على أن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وبشّر مَنْ يتركه مخافة الله بإيمان يجد العبد حلاوته في قلبه

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (باب : قدّر على ابن آدم حظه من الزنا) ٢٠٤٧/٤، حديث ٢٦٥٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٦/١٦، حديث ٢٢١٧٩.

فقالﷺ فيما يرويه عن الله ﷻ:

«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، مَن تركها من مخافتي، أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[1].

وأخيراً:

فإن جهود الشياطين تتجه أولاً نحو القلب، فاذا تمكنت منها أفسدتها بأساليبها الكثيرة، وعند ذاك يغلف الران القلب، فيصبح قطعة من السواد لا نور فيه، وذلك من آثار المعاصي التي أحاطت بقلب العاصي، فقسا قلبه وأظلم...!

بيد أن جهود الشيطان كلها تخفق ويعود خائباً إذا كانت القلوب عامرة بالإيمان، مبتعدة عما يغضب الرحمن، مهيأة لاستقبال كل خير وبر وإحسان، فقد تخلت عن الرذائل وتحلت بالفضائل، والتخلية قبل التحلية كما يقال.

وأول أثر من آثار الإيمان: هو تطهير القلب من العقائد الباطلة والأخلاق السافلة والأفكار الضالة المضلة المنحرفة عن هدي الله، وتنقيته من الذنوب والآثام، والعادات السيئة، والأعمال الرديئة، والانغماس في حب الدنيا وملذاتها، ثم تحليتها بالاستغفار والدعاء وصلاة الليل وصيام التطوع والزهد والإنفاق في سبيل الله....

هذا شيء قليل قليل من مداخل الشيطان إلى النفس البشرية، وشيء ليس بالكثير في تحصين المسلم من مداخل الشيطان الرجيم.

ندعو الله تعالى أن يثبتنا على نهج الاستقامة، ويجنبنا الشيطان وشروره، ويوفقنا لطاعة الله ورسوله، سائلين منه تعالى حسن الخاتمة اللهم آمين وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين!!.

---

(١) رواه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة وقال صحيح الإسناد، ينظر: الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٣/٣٤.

الخاتمة
في حسن الخاتمة

لا يحرص المؤمن بالله الإيمان الحق على شيء حرصه على أن تكون خاتمته حسنة، وهذا أسمى ما يتمناه ويحرص عليه. كيف لا، وهو يعلم أنّ صاحب حسن الخاتمة يفوز أعظم الفوز، وينجح أعظم النجاح، ويُبشّر برضوان الله.!

ونقرأ القرآن الكريم، فنجد الله ﷻ يدعو عباده المؤمنين أن تكون خاتمتهم حسنة، وذلك حين يموتون على هذا الدين، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ سورة آل عمران.

وهذه الآية الكريمة امر من الله تعالى لكل مؤمن أن يستمر في عبادة الله تعالى في حالاته كلها: في غناه وفقره، وصحته ومرضه، وفي شأنه كله إلى أن يدركه الموت وهو على ذلك؛ لتكون ميتته على الإسلام (فإنّ الله الكريم العظيم قد أجرى سنته: أنّه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه)[1].

وقال تعالى:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ سورة الحجر.

أي: استمر في عبادة ربك ما دمت حيا، ودم على عبادتك لله حتى يأتيك الموت.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦٢٩/٢، هذبه: الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى ١٤٢٩-٢٠٠٨، دار الفاروق، عمّان، الأردن.

بشائر في حسن الخاتمة

هناك بشائر من النبيﷺ تدل على أنّ من اتصف بصفة من الصفات الآتية عند الموت كانت خاتمته حسنة، من ذلك:

١- نطقه بكلمة التوحيد: قال النبيﷺ:

«من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»[١].

وروى الإمام أحمد قال: (رأى عمر طلحة بن عبيد الله ثقيلا، فقال: ما لك يا أبا فلان؛ لعلك ساءتك إمرة ابن عمك يا أبا فلان؟ قال: لا، إلا أني سمعت من رسول اللهﷺ حديثا ما منعني أن أسأله عنه إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس الله عنه كربته». قال: فقال عمر: إني لأعلم ما هي. قال: وما هي؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا الله؟ قال طلحة: صدقت، هي -والله- هي)[٢].

٢- أن يقع المسلم شهيدا في سبيل الله، من أجل إعلاء كلمة الله: قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ سورة آل عمران.

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الجنائز (باب: في التلقين) ص٥٦٢، حديث ٣١١٦.

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح ٨/٣، حديث ١٣٨٤.

٣- من مات محرما بحج، قال النبي فيمن وَقَصتْهُ ناقته في الحج:
«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإنّ الله يبعثه يوم القيامة ملبيا»[1].

٤- من قُتل دون ماله أو دينه أو دمه أو أهله: قال النبيﷺ:
«من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[2].

٥- وهكذا الأمر فيمن مات بالطاعون، أو السل، أو داء البطن، أو ذات الجنب، أو المرأة في نفاسها، والموت بالغرق والحرق، والهدم، وقد ورد في ذلك كله أحاديث.

ويفوز بحسن الخاتمة من عاش حياته في تقوى الله، وتمسّك بما جاء به النبيﷺ ومات على ذلك. وهكذا في المداوم على ذكر الله، وقد سئل النبيﷺ: (أي الاعمال أحب الى الله تعالى؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»)[3].

٦- من سأل الله الشهادة بصدق ومات على ذلك: قال النبيﷺ:
«من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: الحنوط للميت) ص٢٠٢-٢٠٣، حديث ١٢٦٦؛ والترمذي في كتاب الحج (باب: ما جاء في المحرم يموت في إحرامه) ص٢٣٢، حديث ٩٥١.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الديات (باب: فيمن قتل دون ماله فهو شهيد) ص٣٤٤، حديث ١٤٢١.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٩٣/٢٠، حديث ١٨١، وابن حبان في كتاب الرقائق (ذكر البيان بأنّ المداومة للمرء على ذكر الله من أحب الأعمال إلى الله) ١٠٠/٣، حديث ٨١٨.

فراشه»[1].

٧- من أمر إماما جائرا بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله: قال النبيﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب و رجل قام إلى إمام جائر فأمره و نهاه فقتله»[2].

وهناك بشائر أخرى في حسن الخاتمة نصّ عليها النبيﷺ، تطلب في مظانها.

من أسباب حسن الخاتمة

١- الموت على التوحيد:

إنّ أهم أصل من أصول عقيدتنا: التوحيد، فهو الأساس الذي قام عليه الدين كله. والتوحيد عقيدة فطرية، وقد كثرت الآيات الداعية إليه، قال الله تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ سورة البقرة.

٢- التقوى: قال الله تعالى:

﴿ ...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ سورة البقرة.

والتقوى سبب من أسباب تكفير السيئات، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة الأنفال.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة) ص٨٥٤، حديث ٤٩٣٠.

(٢) رواه الحاكم ٢١٥/٣، حديث ٤٨٨٤.

والله تعالى يتقبل من المتقين، ويخرج المؤمن من كل ضيق، قال تعالى:

﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ سورة الطلاق.

٣- الاستقامة: قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ سورة فصلت.

وسأل سفيان بن عبد الله الثقفيرضي الله عنه رسول اللهﷺ فقال: (يا رسول الله قل لي فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»)[1].

٤- حسن الظن بالله:

وهذا سبب من أسباب حسن الخاتمة. قال النبيﷺ:

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»[2].

ولمّا دخل النبيﷺ على رجل وهو يموت فقال: («كيف تجدك» قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول اللهﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها...) ص٣٩، حديث ١٥٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن (باب: الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت) ص١٢٤٦، حديث ٧٢٢٩.

في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمّنه من الذي يخاف»)[1].

وقال سليمان التيمي لابنه حين حضرته الوفاة:

(حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله وأنا أحسن الظن به)[2].

٥- الإكثار من ذكر الموت:

إذا تفكّر الإنسان في الموت، وتدبر أمره، ورأى الناس المحتضرين وشاهدهم وهم في سكرات الموت، وزار المقابر...فإنّ هذا يلين القلب القاسي، ويمنعه عن المعاصي، ويجعله على الدوام في طاعة الله تعالى، فإذا حضره الموت كان ذلك من أسباب حسن خاتمته.

ندعو الله حسن الخاتمة! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني ٤١/٣، حديث ١٠٥١.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٤٩٠.

المحتــوى